



الغراب

التاريخ الطبيعي والثقافي

بوريا ساكس

ترجمة : ايزميرالدا حميدان

سلسلة الحيوانات

الغراب

بوريا ساكس

ترجمة: ايزميرالدا حميدان



سلسلة الحيوانات

الغراب

التاريخ الطبيعي والثقافي

مراجعة : أسامه المنزلجي

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

QL696.P2367 S2912 2010
Sax, Boria
الغراب / بوريا ساكس: ترجمة ايزميرالدا حميدان.- أبوظبي: المجمع الثقافي، كلمة، 2010.
ص. : سم.
ترجمة كتاب: Crow.
تدمك:978-9948-01-495-9
1 - الحيوانات والحضارة. 2 - الحيوانات - صور. 3 - الطيور - اساطير وحكايات. أ- حميدان، ايزميرالدا.
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Boria Sax
Crow
Copyright. 2003 by Boria Sax
Was first published by Reaktion Books in the Animal series, London, UK, 2003



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+
فاكس: 462 6314 2 971+



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+
فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات



قناع لهنود قبيلة كواكويتل على شكل غراب، ١٩١٤

مقدمة

الغراب هو شخص فتي مرح على الرغم من معطفه الداكن كالحبر

شون أوكاسي، من «الغراب الأخضر»

من المعتاد في مدننا وريفنا أن الغربان نادراً ما تلتفت في اتجاه البشر. فصرخاتهم ليست من أجلنا إنما هي فقط من أجل الغربان الأخرى. على كل حال وفي أحد الأيام، بينما كنت عائدا إلى المنزل في وايت بلينز (منطقة في مقاطعة ويستشيستر) في نيويورك، رأيت غراباً صغيراً بائساً يقفز عابراً الرصيف أمامي، وعندما حاولت أن انظر إليه مرة أخرى لم يبد أني أثرت فضوله أو أخفته، ولكن على عكس عادات الغربان بدا أنه يرحب بنظراتي في بعض الأحيان. في البداية ظننت أن الغراب قد يكون جريحاً وفكرت في الاتصال بأحد من المتعاطفين الإنسانيين أو بطبيب بيطري ولكن الغراب لم يظهر أي علامة من علامات الألم بل إنه بدا أقل قلقاً مني.

كان هناك بضع ياردات مربعة من العشب على طول الشارع المزدحم ولكنها كافية لتضم بضع أشجار من بينها شجرة صنوبر طويلة، وبالنظر مباشرة نحو الأعلى من خلال الأغصان استطعت أن أرى عشاً قرب قمة الشجرة. كان هذا الغراب فرخاً صغيراً طرد من العش كي يتعلم الطيران. لم يكن باستطاعة أحد من المارة على ذلك الرصيف المزدحم إلا أن يلقي نظرة في اتجاه ذلك الغراب. في بعض الأحيان كانت الكلاب أو الأطفال يقومون بمطاردته، ويحاول بعض العجائز التحدث إليه أو إطعامه.

وكان الغراب يقفز بعيداً بأدب، ليس مسروراً كثيراً ولا منزعجاً، واستمر هذا الوضع لعدة أيام. وتحولت القفزات إلى طيران قصير ثم أصبح التحليق أطول فأطول بالتدريج، وبعد حوالي أسبوع، مررت في ذلك الطريق لأرى الغراب ولكنه لم يكن هناك.

وغالباً ما يميل الفنانون لإظهار الرشاقة الخاصة بالغربان على الرغم من أن القليل من الناس يقدرون ذلك. وفي الحقيقة، لعلها ليست بعيدة جداً



صورة فرنسية محفورة ضوئياً في عام ١٩٠٧ تمثل غرابين.

ولكنها تفضل الحفاظ على مسافة معقولة بعيداً عن البشر. لم يعد بإمكاني تمييز ذلك الغراب عن باقي الغربان التي يمكن أن تكون أطفاله أو أهله في تلك الحديقة، ولكن يطيب لي أن أتخيل أن ذلك الغراب ربما كان يراقبني سراً في بعض الأحيان، وقد عاود الانضمام إلى باقي الغربان بعد إقامة قصيرة في عالم البشر، ولعله يحمل ذكريات سعيدة يتشارك بها مع باقي الغربان.

على السطح، تبدو العلاقات عادة بين الغربان والبشر مجاملة من بعيد ولكن أهمية هذه الطيور في التراث الشعبي لها قيمتها، فهي وإن كانت طيوراً ماكرة، فإن لها جاذبيتها لدى الرجال والنساء على قدم المساواة. عندما ينظر المرء إلى الطيور الأخرى في المدن مثل طيور الحمام أو العصافير فإنها عادة تبدو وكأنها تقضي وقتها ببساطة في الاسترخاء والتقاط فتات الطعام. وعلى عكس ذلك، يبدو دائماً أن هناك شيئاً مهماً يحدث مع الغربان، وكأن المرء يتفرج على دراما محلية، فهي تطير بحيوية وتنادي بعضها بطرق غير متوقعة.

وما هو الغراب؟ لا توجد صورة أبسط وأكثر هيبة عن الحيوان وأقرب إلى الصواب منها. نحن نفكر في رسم بياني عن أجنحة مبسوطة، ورأس محدب وذيل أسود ممتد يعاكس في لونه بياض ثلج الشتاء. تبدو هذه الصورة، منظراً شعرياً، ولكن الطريقة التي يرى بها العلماء الأشياء أكثر تعقيداً بكثير، فهم

يقولون لنا إن الغربان تنتمي لسلالة كورفيدا Corvidae التي تضم أيضاً غربان العقعق وطيور أبي زريق وcloughs وغربان الجوز وطيوراً أخرى.

هذه الطيور تنتمي إلى فصيلة باسيريفورم Passeriformes، المشهورة باسم الطيور المغردة، على الرغم انه ليس لدى جميع أفرادها أصوات موسيقية. ربما كانت أصول سلالة كورفيدا Crovidae من استراليا، عندما كانت فيه تلك القارة معزولة نسبياً عن القارة الاوروآسيوية. وبعد أن انجرفت القارات مقتربة من بعضها منذ حوالي ٢٠ إلى ٣٠ مليون سنة مضت، عبرت هذه الطيور إلى آسيا. وتبعت هذه الهجرة فترة من التغيرات السريعة في التطور بينما كانت الطيور تنتشر في أوروبا وأمريكا.

اليوم نرى أفراداً من سلالة كروفيدا Corvidae في جميع أنحاء العالم إلا في أقصى جنوب أمريكا الجنوبية ومناطق صغيرة نسبياً قرب القطبين.

إن كلمة «غراب» يتم استخدامها في بعض الأحيان للإشارة إلى جميع أعضاء هذه السلالة من الطيور. وغالباً ما تستخدم بشكل أشد صراحة للطيور من نوع كورفوس Corvus والمعروفة أيضاً «بالغربان الحقيقية» والتي تشمل الغداف. الغربان المحتالة وغراب الزيتون. أخيراً قد يستخدم هذا المصطلح، بشكل غير علمي تماماً، لأفراد نوع كورفوس Corvus التي ليس لديها اسم شائع.

في هذا الكتاب، سننظر في العلاقة بين البشر والغربان من جوانب عديدة. بما في ذلك العلاقة الشعرية والتصنيف العلمي والسلوك الحيواني والأساطير والخرافات وحتى الفنون التصويرية. فإذا كان من الصعب أن نصدق أحياناً أن الشعراء والعلماء يتحدثون عن الموضوع نفسه، فإننا نستطيع أن نفكر في القصة المشهورة من التعاليم الهندوسية، والمعروفة باسم «العميان والفيل» حيث تم وضع سبعة عميان أمام فيل وطلب منهم وصفه.

أحدهم تحسس الرأس وقال إن الفيل يشبه السلة، في حين أن الآخر لمس الخرطوم وظن أن هذا المخلوق يشبه الأفعى، بينما قال الذي لمس مؤخرة الفيل بأنه محراث وقال الذي لمس الجسم بأنه مخزن. وادعى

الآخرون الذين لمسوا أجزاء أخرى من الفيل بأنها مثل العمود أو المدفع أو المدقة أو الشجيرة. إن الهدف من هذه الحكاية هو توضيح كيف أن الأمور المختلفة وحتى المتعارضة منها ظاهرياً يمكن أن تكون في النهاية أجزاء من حقيقة واحدة.

بالطبع، نحن لا نتحدث عن الأمور من المنظور الثقافي والحضاري. فالعميان هنا المقصود بهم الشعراء والعلماء والكهنة والرسامون... الخ وهم لا يقومون بتفحص الفيل بل الغراب. ومع ذلك فإن المبدأ نفسه ينطبق هنا، حيث أن الأشكال المختلفة للنشاطات الثقافية هي في النهاية جزء من تقليد واحد ومعاً تستطيع بناء صورة متكاملة أكثر منها منفردة. في هذا الكتاب سأتحرك جيئة وذهاباً بين العلم والشعر والأسطورة والتقاليد الأخرى في إعادة سرد تاريخ الغربان والبشر.



تظهر دروع عائلة كوربرت الغراب من منظور بشري محبب.

هذه الطيور غالباً ما تكون سوداء بالكامل، على الرغم من أن بعض الأنواع لديها مساحات بيضاء أو بنية أو رمادية أو زرقاء أو بنفسجية أو حتى خضراء. عادة ما يجعل هذا الريش الداكن الغربان تتمايز بشكل دراماتيكي وكذلك يجعل من الصعب تمييزها عن بعضها، فالأسود هو لون التراب والليل وربما لهذا كانت الغربان غالباً ما ترتبط بقوى غامضة. إنه اللون الذي يجعل المخلوقات تبدو أكثر جلالاً وجدية، ولهذا فقد كان اللون المفضل لثياب الكهنة وكذلك لمدراء المدارس حتى وقت قريب.

إن طريقة وقوفهم المحدبة وحبهم لالتهام الجيف ساعدا في جعل الغربان رمزاً للموت وبالرغم من ذلك فإن قلة من الطيور الأخرى تتمتع بحيوية الغربان وحبها للعب، فهي تقوم بالكثير مما يبدو أنه لعب بلا جدوى مثل حمل غصن صغير عالياً وإسقاطه ثم الانحدار نحو الأسفل والتقاطه ثانية.

قد تتدلى الغربان بالمقلوب بدون أي سبب واضح وعلى قدم واحدة أو تقوم بتنفيذ شقلبات خلفية أثناء الطيران. تقوم الغربان في ألاسكا مراراً وتكراراً بكسر قطع من الثلج المتجمد على الأسطح المائلة وتستعملها كمزلجة لتنزلق عليها.

وكان لورانس كيلهام، الذي ألف كتاباً مهماً حول السلوك الاجتماعي

رسم توضيحي لغراب في كتاب صادر في القرن التاسع عشر عن التاريخ الطبيعي. وهذا الغراب حتى الآن هو الأكبر والأكثر هيبة بين فصيلة الغربان الكورفيد corvids.



لفصيلة الغربان، وقد أطلق النار ذات مرة على غراب في أيسلندا فسقطت منه ريشة واحدة إلى الأرض وطار الغراب بعيداً. وعندما توقف كيلهام ليعيد حشو مسدسه عاد الغراب وطار فوق رأسه واسقط بقايا التوت البري التي كان يأكلها على قبعته، فاستنتج كيلهام أن الغربان، بالإضافة إلى كونها ذكية، لديها حس الدعابة أيضاً.

تبدو الغربان من خلال اعتمادها على سيقانها الطويلة القوية وكأنها تنزلق فوق الأرض، ثم تصعد مرتفعة بلا جهد تقريباً، وهي تضرب الهواء بأجنحتها وكأنها مجموعة من الأشباح. ويتميز الغراب بأن له منحنى واحداً من رأس منقاره وحتى نهاية ذيله، يتغير بتناغم عندما يدير الغراب رأسه أو



أبو زريق الأزرق (blu.
jay نسبة للعالم ج.ج
اودبون)، من كتاب عن
التاريخ الطبيعي يعود
إلى القرن التاسع عشر.
وهو واحد من أكثر أنواع
الغربان انتشاراً في أمريكا
الشمالية، وهو طائر لعوب
وكثيراً ما جعله هذا مخادعاً
في الأساطير التي نسجت
حوله.

ينحني نحو الأرض.

من أكثر أنواع فصيلة الغربان شيوعاً الغراب آكل الجيف (كورفوس كوروني كوروني)، والغراب ذو القلنسوة (كورفوس كوروني كورنيكس)، والغراب الأمريكي (كورفوس براكيرهينكوس)، والغراب العادي (كورفوس كوراكس)، وغراب الغداف أو الروك (كورفوس فروجيليجوس)، إضافة إلى غراب الزيتون (كورفوس مونيديولا). تمتاز جميع هذه الطيور بتنوعها الكبير، وتجمعها بالبشر علاقات معقدة.

إن الغراب آكل الجيف أسود اللون بشكل كامل، على الرغم من أن ريشه يعطي بريقاً بنفسجياً أو أخضر تحت أضواء معينة. والغراب ذو القلنسوة لديه مساحة واسعة من اللون الرمادي الباهت في مؤخرة رقبته ونهاية صدره. وفيما عدا ذلك فإن هاتين الفصيلتين الفرعيتين متطابقتان تقريباً، وتتزاوجان فيما بينهما بحرية عندما تتشابك مجالاتهما. وربما انفصلتا عندما انفصل تجمعان لهما في العصر الجليدي، وتغطي مساراتهما المشتركة أغلبية القارتين الأوروبية والآسيوية. يعيش الغراب ذو القلنسوة عادة في أقصى الشمال وفي منطقة المتوسط وأوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، في حين أن الغراب آكل الجيفة معروف في أوروبا الغربية وكوريا واليابان.

يماثل الغراب الأمريكي الغراب آكل الجيف في الحجم، حيث يقارب طوله ٤٠ سنتمتراً أو ١٧ انشاً عند البلوغ، وفي اللون. ويرى بعض الباحثين أن الاثنين يجب أن يعتبرا نوعاً واحداً، وسبب التفرقة بينهما جغرافي محض. فلكي تنتمي الحيوانات إلى النوع نفسه يجب أن يكون التزاوج بينها عادة

إلى اليسار: كسار بندق اوروآسيوي من كتاب عن التاريخ الطبيعي يعود للقرن التاسع عشر. لا يعتبر كغراب حقيقي ولكنه يتشارك سمعة الذكاء مع أقربائه. وهو يتمتع بقدرة غير عادية على إخفاء الطعام وتحديد مكانه فيما بعد.

إلى اليمين: أبو زريق من كتاب عن التاريخ الطبيعي من القرن التاسع عشر. عُرف هذا الطائر بقدرته على تقليد أصوات حيوانات أخرى من صراصير الليل وحتى البشر.





لديها، ولكن المحيط يفصل الغراب آكل الجيف عن الغراب الأمريكي. فالغراب الأمريكي يعيش في مستوطنات واسعة على طول الولايات المتحدة وكندا ولكن ليس له وجود خارج أمريكا الشمالية.

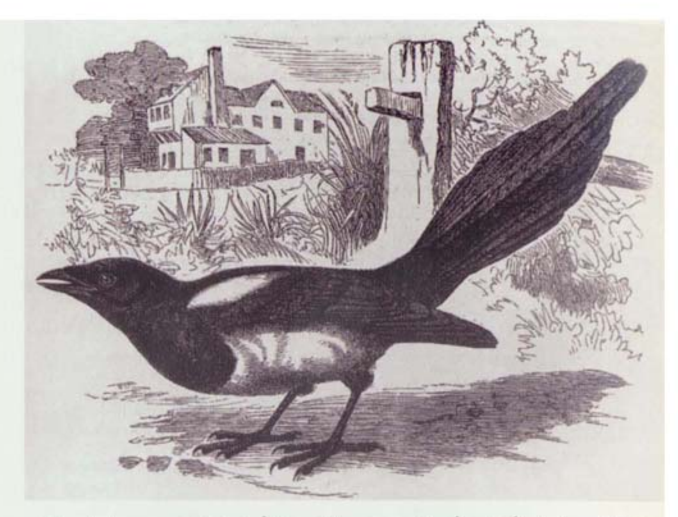
أما الغراب العادي، وبغض النظر عن اسمه، فلا يُشاهد كثيراً، ولكن له مدى هائلاً. فهو يعيش على طول النصف الشمالي للكرة الأرضية وشمال الصحراء الإفريقية. وهو أطول بشكل ملحوظ من الغربان الأخرى، حيث يصل طوله إلى حوالي ٦٥ سنتمتراً أو ٢٧ انشاً عند البلوغ. ولديه أيضا منقار ثقيل وصوت عميق بشكل خاص. وعندما يحلق فوقنا مباشرة فإنه من الممكن تمييزه عن باقي الغربان بشكل ذيله المستدق وأجنحته الحادة الأطراف، ويلاحظ عليه أيضا أنه يناوب بين رفرفة جناحيه والانزلاق.

ولا يزال هناك نوع آخر من الغربان يحدث الخلط كثيراً بينه وبين الغراب آكل الجيف وهو غراب الغداف. الروك (Rook) ونستطيع تمييزه بشكل أساسي عن طريق المساحات الخشنة والباهتة حول عينيه ومنقاره. مما يجعل وجوه غربان الروك تبدو ذابلة ومعبِّرة جداً. وهذه الطيور شائعة جداً في شمالي أوروبا، ولكن مداها الطبيعي يمتد شرقاً حتى اليابان. وقد جرى خلال القرن التاسع عشر إدخالها إلى نيوزيلندا وهي منطقة لم تعرف الغربان من قبل.

إن العضو الوحيد من فصيلة الغربان الذي لن يخلط أحد بينه وبين الغربان الأخرى من ناحية المظهر هو غراب الزيتون الذي يصل طوله إلى ٢٥ سنتيمترا أو ١٠ بوصات فقط، وهو أصغر بكثير من البقية،وله منقار قصير وحاد ولونه رمادي حول الكتفين وأعلى الصدر. وعلى أية حال فإن أكبر ما يميز غراب الزيتون أعينه الفضية التي تشع بقوة وسط ريشه الداكن المحيط بها. وغربان الزيتون شائعة في أوروبا وفي القسم الغربي من آسيا، حيث أن عادتها في النعيق عندما تصفق بأجنحتها أكسبتها صيتاً بأنها ميالة للأذى.

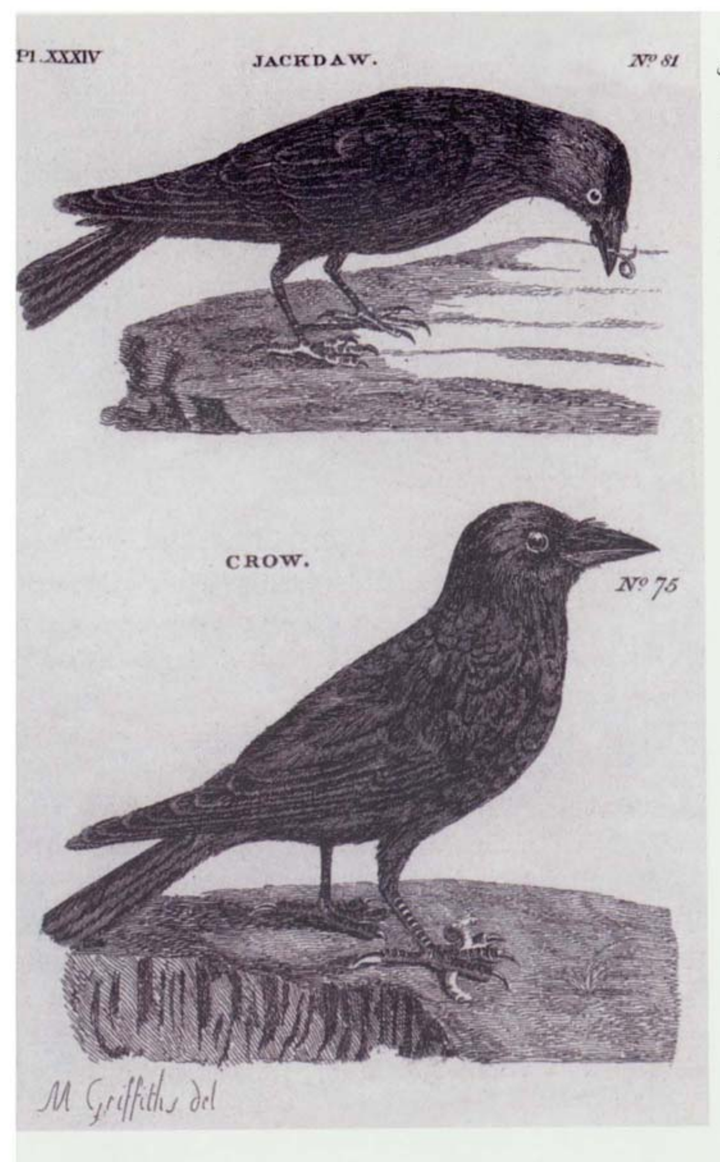
هناك أكثر من ٢٠ إلى ٣٠ عضواً آخر في فصيلة الغربان ويعتمد ذلك على التصنيف الذي نفضله. ويوجد الغراب البني الظهر (كورفوس

غراب العقعق: من كتاب عن التاريخ الطبيعي البريطاني صدر عام ١٩١١. وعلى الرغم من أنه لا يعد غراباً حقيقياً، فإن طائر العقعق يعرف عنه كسائر الغربان الذكاء.



روفيكالوس) في أغلب أجزاء نصف الكرة الأرضية الجنوبي، بما في ذلك استراليا وإفريقيا وأجزاء من أمريكا اللاتينية. ويوجد غراب المنازل الهندي (كورفوس سبليندينس) وغراب الغابة (كورفوس ماكرورشينشوس) في أجزاء كثيرة من جنوبي آسيا. والعديد من أعضاء فصيلة الغربان تلتزم بمستوطنات محددة نسبياً أو حتى جزر محددة.

إن دراسة تصنيف الغربان، اليوم، ومثل باقي الحيوانات، موضع جدال خفي بين المختصين، حيث أن الاختلافات بين فصائل الغربان (الكورفيدس) غالباً ما تكون مفيدة وأنيقة، ولكنها لن تساعدنا أبداً في فهم الاشارات الى الغربان في الأساطير أو الأدب. وقد يكون من شبه المستحيل معرفة أي نوع من الغربان هو المقصود في قطعة من التراث الشعبي. فقبيل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان يمكن تمييز أنواع متعددة من الطيور والمخلوقات الأخرى بصورة فضفاضة، وغالباً ما يتم هذا الأمر من خلال خصائص مثل اللون. وفي بعض الأحيان كان يُخلط بين الطائر الأسود والغراب آكل الجيف، على الرغم من أن الاثنين ليسا قريبين جداً من



غراب زيتون وغراب أمريكي، من كتاب عن التاريخ الطبيعي صادر في القرن التاسع عشر. صور الرسام غراب الزيتون كلص في حين رسم الغراب وكأن له هيبة معلنة

بعضهما، وذلك ببساطة لأن لهما ريشاً متشابهاً. ولكن حتى ندخل إلى روح الحكايات القديمة، علينا أن نكون قادرين على وضع جزء من المعارف التي اكتسبناها جانباً. فعند الحديث عن الأساطير، لا يستطيع المرء دائماً استخدام لغة العلم.

يقل وجود الغربان في الأساطير المنهجية الرائعة لأوروبا وآسيا عن الأساطير الغابرة. فالأساطير المهيبة التي تحمل قناعات رسمية تصور حيوانات إما خيالية أو غريبة كالتنانين، وأحادي القرن (Unicorn حيوان خرافي له جسم فرس وذيل حصان وقرن وحيد وسط الجبهة) أو الأسود. ولكن يمكن للخرافات التي عاشت آلاف السنوات أن تكون أقدم من الأساطير، فالأساطير الرسمية عادة ما تكون نتاج طبقات المحاربين والكهنة. ويعبر التراث الشعبي (الفولكلور) عن رؤية أكثر تساوياً وربما أكثر قدماً عن العالم الذي لا يعيش فيه فقط الملوك والفلاحون ولكن أيضاً الحيوانات والنباتات التي تتفاعل بحميمية نسبية. هذا هو النوع الذي تكون فيه الغربان في مكانها المناسب تماماً، وهي معتادة على العيش معتمدة على ذكائها.

إن أسماء الغربان بدائية غالباً. فالحيوانات الأخرى قد سميت تبعاً لارتباطها بالأساطير أو الحياة اليومية. والكلمات المختلفة التي تميز الغربان (الكورفيدس) مشتقة بشكل عام من محاولات لتقليد نداءاتها. أحد الأمثلة هي كلمة الغراب الإنجليزية «Crow» والتي اشتقت من الكلمة الانجلوساكسونية. «cráwe» وهي مرتبطة بالمرادف الألماني Krähe، الذي هو أقرب الى نداء الطير. مثال آخر هي كلمة «raven» والتي اشتقت من النرويجية القديمة hrafn. وقام اللغويون بتتبع الكلمة إلى أبعد من ذلك، إلى الكلمة الألمانية من ما قبل التاريخ khraben، وهي نسخة جيدة عن نداء الغراب. وهي تعود إلى الكلمة اللاتينية Corvus، والكلمة الايرلندية القديمة crú والكلمة السنسكريتية karavas، والمرادفات القريبة في العديد من اللغات الهندو-أوروبية الأخرى. إن اسم غراب الزيتون «jackdaw» يرتكز على مزيج من كلمتي «daw» وهي كلمة انجلوساكسونية تعني

الأحمق، وكلمة «thank» أو «Jack»، وهي صوت ذلك الطائر. إن كلمة «rook» مشتقة من الكلمة الانجلو ساكسونية hróc أو بشكل أكثر حداثة «croak» أي النعيب. إن الاسم «magpie» غراب العقعق، هو وفقاً لإحدى النظريات، مزيج من كلمتي «Margaret» مارغريت. «pied» أي المنقط، بمعنى السيدة التي ترتدي ثياباً فرحة. وعلى أي حال، فالاسم اللاتيني للطير هو Pica pica والذي هو غالباً تقليد لصوت الطائر. تبدو هذه الألقاب سحرية، نظراً لأن إطلاق اسم على الطائر، بطريقة ما، يهدف لاستدعائه بالنداء عليه.

هناك جدال مستمر بين العلماء عما إذا كان الغراب الأمريكي أو الغراب الأسود أو أي من أقربائهما المتنوعين هو الأكثر ذكاء. وقد اتفق جميع علماء الطيور، على كل حال، أن الغربان تقع قرب قمة هرم عالم الطيور فيما يخص أدمغتها، وربما الببغاوات هي فقط من يجاريها. تمتلك الغربان أكبر الأدمغة نسبة إلى حجم جسم أي طير، وأدمغة الغربان مزدحمة تماماً بالخلايا العصبية. حيث أن دماغ الغراب الأمريكي يعادل حوالي ٢,٣٪ من كتلة جسمه. علماً إن دماغ البشر يعادل حوالي ١,٥٪ من كتلة الجسم، في حين أن دماغ الدجاجة المنزلية يعادل حوالي ٠,١٪. وبالنسبة للغراب العادي، فالنسبة حوالي ١,٣٪، بالرغم من أن هذه الطيور لديها أثقل الأدمغة



دروع البارون فون ريندشيدت، ربما ترمز إلى الترابط بين قوة الخنزير وحكمة الغراب.

على الإطلاق بين الطيور، من ١٢-١٧ غراماً.

إن «الذكاء» هو مفهوم له صدى أسطوري في المجتمع المعاصر. فالجميع يتفقون على أنه أمر مهم جداً، ولكن لا أحد يعرف ماهيته. وقد أجمع العلماء على أن التعريف الدقيق للذكاء الذي يتجاوز خطوط الفصائل يكاد يكون مستحيلاً. وعلى أي حال فإن الفكر الشعبي ليس دائماً متواضعاً أو حذراً، فالذكاء لا يستخدم غالباً كمقياس لقدرات معينة، ولكن أيضا كمقياس للقيمة الكاملة للإنسان أو الحيوان. ونحن عادة نحسب الذكاء على أنه الميزة التي تفرق البشر عن الوحوش وربما الحيوانات عن النباتات.

إن ذكاء الغربان، بالإضافة إلى الشارب حول مناقيرها والابتسامة الظاهرية هو ما يجعلها، بطريقة ما قريبة من البشر. وقد قال دايفيد كوامين، الكاتب المختص بشؤون الطبيعة إن كامل عائلة الغربان مليئة بسلوك استثنائي وعادات راسخة تستدعي تفسيرها وليس فقط من قبل علماء الطيور ولكن أيضاً من قبل الأطباء النفسيين. وتقوم نظريته على أن الذكاء الطبيعي للغربان هو أكثر بكثير مما هو مطلوب لاستمرار الحياة في موقعها البيولوجي، والنتيجة هي أن الغربان تشعر بالضجر دائماً وتقوم باختراع ألعاب لتسري عن نفسها. بمعنى آخر، إن الغربان تشبه الأطفال الأذكياء في بيئة لا تشجع الانجازات الذكية ولا تقدرها.

وتقول حكاية منسوبة تقليدياً إلى الحكيم اليوناني ايسوب Aesop، الذي يقال إنه قد عاش في جزيرة ساموس في القرن السادس قبل الميلاد، إن غراباً عطشان عثر على جرة مليئة بالماء وكانت أثقل من أن يستطيع قلبها، فبدأ الغراب بإلقاء الحصى من فتحة الجرة حتى ارتفع مستوى الماء واستطاع الشرب منها. ونقل الموسوعي بليني الأكبر في القرن الأول أن الناس شاهدوا فعلاً غراباً في حقبة القحط يقوم بتكديس حجارة في مدفن تذكاري يحتوي ماء المطر. اعتقد العلماء في غالبية القرن الثاني عشر أن الطيور غير قادرة على القيام بمثل هذا النوع من التفكير، وبالرغم من ذلك فإنه في السبعينات من القرن العشرين، راقب علماء أمريكيون طائر أبو زريق سجيناً (كيانوسيتا



غراب نرويجي وأبو زريق كندي للويس أجاسيز بويرتيس. الريش السميك يسمح لهذين النوعين من الغربان بالحياة في المناطق الشمالية المتجمدة.

كريستاتا)، وهو طائر من أقارب الغربان، يقوم بعفوية بإسقاط أجسام صلبة في كأس من الماء ليرفع مستوى الماء فيه تماماً كما في الحكاية المذكورة.

لقد قام العديد من المراقبين، بمن فيهم علماء رفيعو الشأن، بالإبلاغ عن أعمال ذهنية استثنائية من قبل الغربان. ويعتقد بعض الباحثين أن فصيلة من الغربان توجد في جزيرة كاليدونيا الجديدة في المحيط الهادي هي، بعد الإنسان، أكثر صانعي الأدوات احترافاً بين الحيوانات. ويتضمن «صندوق الأدوات» الخاص بها قضيباً مصنوعاً من فرع حاد الرأس ويستخدمه الغراب لإخراج الديدان من أوراق أشجار النخيل. وهناك أيضاً كلاّب، منحوت بدقة من فرع مقوس، يستطيع بواسطته الغراب سحب الديدان من الثقوب. وربما الأكثر غرابة أن لديه منشاراً مصنوعاً من هيكل ورقة الشجر يستخدمه لتقطيع وتقشير الديدان. كل هذه الأدوات صنعت بتصميم ودقة استثنائية.

وفي مدينة سينداي في اليابان قامت الغربان آكلة الجيف باكتشاف

طريقة حاذقة لكسر الجوز. فهي تأخذ الجوز وتنتظر قرب الطريق حتى يتحول لون الإشارة إلى الأحمر فتهبط وتضع الجوزة أمام عجلة سيارة وتحلق ثانية، وعندما يتحول لون الإشارة إلى الأخضر تعود لتأكل قطع الجوزة التي كسرتها السيارة. وفي فنلندا، حيث يقوم الصيادون بترك خيوط صنانيرهم في الحفر التي حفروها في الجليد، تقوم الغربان ذات القلنسوة بصورة منهجية بسحب الخيط من الماء وسرقة ما اصطادته. وقد قام العديد من الباحثين خلال العقود الماضية بالإبلاغ عن حوادث تؤكد ذكاء الغربان. ومنها أن أحد الغربان في المختبر توصل لطريقة غرف الماء من كوب بلاستيكي وحمله بعيداً لترطيب حبوب الطعام. وآخر قام باستعمال قطعة ورق لدفع كسرات الطعام الى مسافة يصل اليها منقاره من داخل قفصه.

من المحتمل أن أغلب الأدلة الدراماتيكية عن ذكاء الغربان تم اكتشافها في عام ٢٠٠٢ في مختبر أوكسفورد الخاص بالعالم أليكس كاسيلنيك، الذي قام بوضع غرابين من جزيرة كاليدونيا الجديدة (كورفوس مونيدولويديس) ويدعيان أبل وبيتي في مواجهة أحجية، اتضح فيما بعد أنها كانت بدائية جداً بالنسبة لمثل هذه الطيور الذكية. وقد تم تزويدهما بمقدار كبير من الطعام من خلال أنبوب وأعطيا سِلكَين أحدهما معقوف والآخر مستقيم لاستخراج الطعام من الأنبوب. وقد لاحظا مباشرة ماهي الأداة المناسبة. بدأ أبل العمل باستخدام السلك المعقوف في حين قامت بيتي بثني السلك المستقيم بدقة وصنعت منه كلاباً وحصلت على وجبتها. وبعد تجربة هذا الأمر لأكثر من مرة لم يقم الغراب فقط بحل الأحجية بل في كل مرة كانت بيتي تبتكر طرقاً جديدة لثني السلك. وفي بعض الأحيان كانت تمسكه بقدميها وتثنيه باستخدام منقارها، وفي أحيان أخرى ثبتت أحد الأطراف باستخدام شريط لاصق وقامت بثني الطرف الآخر. وقد تم مواجهة الشمبانزي والقردة بالمهمة نفسها ولكن لم يستطع أي منها التوصل لطريقة لإنجازها.

لقد لاحظت في وايت بلينز، حيث أعيش، كيف أن الغربان توصلت لمعرفة مكان المطاعم والتوقيت الذي يقومون فيه بإخراج القمامة. وكانوا ينتظرون قرب

مكان إلقاء القمامة ويقومون بتمزيق الأكياس البلاستيكية المفتوحة بشكل منظم للحصول على الطعام. ويبدو أن كل شخص هنا لديه قصة تتضمن غراباً او أنه شاهد الغربان تكشف عن ذكائها غير العادي أو وعيها العاطفي. قد تكون تفسيرات هذه الحوادث عرضة للشك خاصة من وجهة نظر العلماء. ولكن بالتأكيد فإن هذه الحوادث ليست مجرد سجل فقط ولكنها أيضاً تحتوي تفسيرات يعتد بها للسلوك، حتى أن المراقب الدقيق قد يتأثر بالمشاعر الشخصية أو عبر افتراض التفوق البشري. ولكن حتى ولو بقي لدينا بعض الشك في التفسيرات الفردية فإن الأعداد الهائلة من الحكايات التي تدور حول الغربان تظهر أن لدى هذه الطيور طريقة في إدهاش الناس.

يعتبر الباحثون أن الملكة اللغوية مؤشر مهم على الذكاء، ووفقاً لإحدى الدراسات تم فك رموز ٢٣ صرخة مميزة للغربان الأمريكية، وأشياء مثل نداءات الاجتماع أو التحذير من الخطر. وهذه مفردات قد تحسدها عليها القرود الكبيرة. هناك العشرات من النداءات الأخرى ذات المعنى والتي تصدرها الغربان والغربان السوداء ولكن لم يتم تفسيرها حتى الآن. وبعض هذه النداءات خاصة بمناطق محددة أو حتى لثنائي واحد. فلكل غراب نداء خاص يعرفه رفاقه عن طريقه، وأكثر من ذلك فإن الغربان تقوم بتقليد ماهر، حيث تقلد نداءات البوم وربما بعض الحيوانات الأخرى في البرية. وقد تم تعليم الغربان في الأسر استخدام أجزاء من اللغة الانسانية. ولربما يتم الكثير من التواصل بين الغربان من خلال مزيج من الأصوات والحركات، فمثل هذا التفاعل قد يكون متقناً ومحدداً، ومع ذلك فإنه، شأنه في ذلك شأن التواصل الحميم بين البشر، يعتمد على المحتوى الذي لن يتمكن الغرباء عن المجتمع بمن فيهم البشر من فك رموزه.

هذه الملكة اللفظية تنعكس أيضاً في التراث الشعبي، حيث يقوم الغراب والغراب آكل الجيف بقول القليل جداً للإنسان في الأساطير، ولكن كلماتهم النادرة تلك تحمل معاني عميقة. وقد ذكر كتيب انكليزي صدر في عام ١٦٩٤ أن غراباً في هيرفوردشير قال ثلاث مرات: «انظر إلى

صورة لأبو زريق أزرق من كتاب «إيتون لطيور نيويورك». وتساعد ألوانه البراقة وصوته المرتفع في جعل هذا الطائر أحد أكثر الطيور جذباً للانتباه في أمريكا الشمالية.



كتاب العهد الجديد التعاليم الثالثة والخامسة عشرة». لكنَّ غربان العقعق وأبو زريق مشهورة باللهو، مما منحها شهرتها كمحتالة في الحضارات الممتدة من أمريكا الشمالية وحتى الصين. والميزات اللغوية لديها أكسبتها سمعتها كمحبّة وشياطين وجنيات أيضاً.

ومن علامات الذكاء الأخرى الحياة الاجتماعية المعقدة التي لا تزال تتحدى الباحثين اليوم، فغالباً ما تتعاون الغربان بالصيد والبحث عن الطعام. ومن خدعها المفضلة العثور على قندس اصطاد سمكة للتو، حيث يقوم أحد الغربان بنقر ذيل القندس، مما يجعله يلقي بالسمكة التي يمسكها ويلتفت

غراب الروك Rook
(كورفوس فروجليجوس)
في رسم لجان سيب تعود
لعام ١٧٩٠. إن بشرة وجه
هذا الطائر الخشنة والعارية
تجعله يبدو كمحارب شرس
يرتدي خوذة.

نحو الخلف في الوقت الذي يقوم فيه غراب آخر بالتقاط السمكة.

إن الوحدة الأساسية لمجتمع الغربان هي العائلة الممتدة والتي تتمركز حول زوج يتوالد بكثرة. فالغربان الأمريكية تحتاج إلى حوالي ثلاث سنوات حتى تصل إلى سن البلوغ وتبدأ التزاوج، ويمكن للثنائي ان يتناسلا كل سنة. والغربان التي لم تصل بعد إلى سن التزاوج أو لم تستطع الحصول على شريك تبقى مع أبويها وتساعد في تربية النسل الجديد، وتساعد بشكل خاص في بناء الأعشاش. وتتمتع الغربان بمعدل حياة طويل، بالمقارنة مع الطيور الأخرى، يتجاوز في بعض الأحيان العقدين من الزمان مما يمكنها من تطوير صلات عائلية عبر الأجيال. وتمتلك الغربان رقصات مغازلة تقوم فيها بخفض أجنحتها وهز ذيولها، ولا تقيم الغربان علاقات جنسية مع أكثر من شريك واحد في الوقت نفسه. وقد اعتبر المصريون القدماء الغربان رمزاً للتناغم العائلي.

يقوم العديد من الغربان بما فيها الغراب آكل الجيف والغراب الأمريكي

بتشكيل تجمعات ضخمة في أواخر الخريف أو في الشتاء، وفي بعض الأحيان تبلغ أعدادها الآلاف (وفي حالات قليلة تصل الى المليون)، ولكن أسباب ذلك الاجتماع تبقى غامضة. فقد تكون على سبيل المثال، للحماية من المفترسين كأولوية، أو يمكن أن تكون لتبادل المعلومات حول مناطق الطعام، أو للعثور على الشركاء. ويمكن أن تكون خليطاً من هذه الأسباب وأسباب أخرى. ووفقاً للأسطورة، فإن هذه الاجتماعات كانت بهدف عقد محاكمة.

إن أكثر الغربان ميلاً للعزلة هي الغربان السوداء والتي عادة ما تعيش على شكل أزواج أو عائلات صغيرة في المناطق النائية، وغالباً في المناطق الجبلية، على الرغم من أنها قد تجتمع أحياناً لتشكل مجموعات من المئات أو حتى الآلاف. إن العزلة النسبية التي تعيش فيها الغربان السوداء مع حجمها المهيب يجعلها رموزاً خاصة وقوية للقدر. وأكثر الغربان اختلاطاً هي غربان الروك Rook وغربان الزيتون، والتي تشكل مستعمرات فيها الكثير من الأعشاش على شجرة واحدة أو في مبنى مهجور.

يتشارك الغربان مع البشر في تلك الحميمية الخاصة مع عائلة الكلابيات (canid). فقد لاحظ العلماء في أمريكا الشمالية علاقة شبه بيولوجية بين الذئاب والغربان أو الغربان السوداء. حيث تقوم الغربان السوداء باللحاق بمجموعات الذئاب، ومن ثم تقوم بأكل بقايا الحيوانات التي قتلتها الذئاب.



غراب ذو قلنسوة من كتاب عن التاريخ الطبيعي من القرن التاسع عشر. والغربان قريبة للقلوب حتى أن المزارعين غالباً يميلون لمسامحتها وفي الغالب لأكلها من محاصيلهم.

كما تقوم الغربان باسترعاء انتباه الذئاب إلى البقايا والجثث، ثم تقوم بأكل بعض اللحم بعد أن تكون الذئاب قد قامت بتمزيق الجلد وفتحه. وفي أمريكا الشمالية، وربما في أماكن أخرى كذلك، تقوم الغربان السوداء بلعب نوع من ألعاب المطاردة مع الذئاب، حيث تقوم الغربان السوداء بالانقضاض على الذئاب لتدفعها إلى مطاردتها، وفي أحيان أخرى تقوم الغربان السوداء بدورها بمطاردة الذئاب. أحياناً تجتمع مجموعات الذئاب مع أسراب الغربان السوداء لتشكل نوعاً من الفرق الموسيقية معاً، حيث يتناوب عواء الذئاب مع صرخات الغربان السوداء. ويشترك هذا الطير وذلك الحيوان الثديي في التفاخر ويرتبطان معاً بفكرة التدمير، كما أنهما مرتبطان معاً في كثير من الأساطير، فمثلاً: كلاهما يرافقان أودين النرويجي، إله السحر والمعارك.

قد يجادل البعض فيما إذا كانت هذه الخاصية التي تشترك فيها الغربان مع البشر مؤشراً على الذكاء أم الحماقة، فكلاهما يحب الأشياء البراقة. فالغربان الأصغر مثل غراب العقعق وغراب الزيتون، مشهورة بسرقة الجواهر. وفي مجموعة الأساطير الألمانية يقص الإخوة جريم كيف أن مسؤولاً فاسداً استخدم غراب الزيتون في القرن السابع عشر لسرقة كامل خزينة مدينة شويديتز، قطعة ذهبية في كل مرة. مثل هذا السلوك البشري المثير للشبهات يمكن أن يزيد الشكوك في أن الطيور كانت مقربة من السحرة.

إن التشابه بين الغراب والإنسان يمكن أن يقود إلى العداوة أو إلى المودة،الطعام في شأنها شأن الإنسان، تأكل كل شيء رغم أن لها ولعاً خاصاً بالجيف. وتروي حكاية من الصومال كيف أن الطيور عقدت اجتماعاً لتقرير كيفية تقسيم الطعام في العالم. فاقترح الغراب الأسود الذكي أن كل الطيور الأكبر منه يجب أن تقتات على اللحوم، في حين أن الطيور الأصغر يجب أن تأكل النباتات. وتم قبول الاقتراح، ولكن الأمر الذي لم ينتبه إليه الآخرون هو أن الغراب تُرك حراً ليأكل أي شيء.

ولكن قبل حلول القرن العشرين، عندما كان المجتمع البشري في العالم ككل قروياً إلى حد كبير، كان يمكن مشاهدة الغربان وهي تنقر جثث

الحيوانات الميتة، والأكثر أهمية، أنها كانت تشاهد وهي تمزق أمعاء الجنود الموتى وحتى المحتضرين منهم في ميدان المعركة. حتى أنهم تعلموا كيف يتبعون الجيوش في انتظار الطعام. ولكن فكرة أن يؤكل المرء من قبل الغربان يمكن أحياناً أن تكون معزية، وخصوصاً في الحضارات التي تفضل أن تنظر للحياة على أنها دائرة مستمرة من الولادة والموت. وكان من عادات أجزاء من بلاد فارس والهند إطعام الجثث للطيور، وفي التيبت استمر التقليد القاضي بإطعام أجساد الموتى للحيوانات آكلة الجيف وخاصة منها الغربان والطيور الأخرى حتى الخمسينات من القرن العشرين. وحتى يمكن للطيور أكل الجثث بسهولة أكثر، كان سكان الجبال يقومون بتقطيع الجثث إلى قطع صغيرة ويقومون بدق العظام وعجنها مع الشعير حتى لا تترك منثورة على الأرض.

إن أكلها للجيف كان السبب الذي جعل الغربان ترتبط بشدة بالموت



صورة ساخرة رسمها ج.ج. جراندفيل لمجلة الحيوانات (١٨٦٦)، تظهر طاقم العمل في مشفى، حيث القرش هو الجراح الرئيسي وهو يصدر التعليمات إلى الغربان السوداء والجرذان والنسور.

في الثقافات حول العالم، وعلى أية حال، علينا أن نتذكر أن طريقة التفكير بالموت دائماً ما كانت معقدة ومتناقضة. فالموت يجلب الرعب والراحة معاً، ويمكن النظر إليه على أنه انقراض، أو لعله انتقال إلى عالم آخر، قد يكون أكثر سعادة. وقد امتدت جميع هذه التناقضات إلى الغربان. حيث أن الأساطير حول العالم تجعل من الغربان أساتذة للأحياء ومرشدين للموتى.

لدى قبيلة مورينباتا وهي قبيلة بدائية في أستراليا، قصة تحكي كيف أن الغراب والسرطان تجادلا مرة حول الطريقة الأفضل للموت. وكي يقوم السرطان بشرح طريقته عثر على حفرة ألقى فيه صدفته القديمة وانتظر بصبر. أخيراً عاد السرطان وهو يحمل صدفة جديدة وأعلن أنه قد ولد من جديد. اعترض الغراب لأن العملية أخذت وقتاً طويلاً ثم سقط نحو الخلف واستلقى بلا حراك، ولم يكن بالإمكان إحياؤه ثانية. قد يكون البشر لا يزالون عرضة للفناء ولكن الغراب على الأقل أظهر طريقة سريعة ومحترمة للعبور إلى العالم الآخر.

إن تراث الغربان ثري ومتنوع، ومع ذلك فإن بعض المواضيع تظهر مراراً. في مجال واسع من الثقافات الممتدة من الصينيين إلى هنود السهول، تعتبر الغربان حملة النبوءات. ومثال جيد على ذلك هو التقليد الذي يعرف أحياناً بـ «عد الغربان»، والذي يستخدم مع طيور العقعق والغربان على حد سواء للتنبؤ بالمستقبل. ويتم العد عادة عندما تبدأ الغربان بالتحليق فوق الرؤوس. وقد سجل كُتَّاب التراث الشعبي العديد من الأشعار، خاصة في بريطانيا وأمريكا، تربط عدد الغربان التي تراها بالقدر. وأحد أشهر الأشعار المتعلقة بعد الغربان يأتي من سكوتلندا:

واحد يعني الأسف

اثنان يعنيان المرح

ثلاثة تعني الميلاد

أربعة تعني الزفاف

خمسة تعني الفضة

ستة تعني الذهب
سبعة تعني سراً لا يجب إفشاؤه
ثمانية تعني الجنة
تسعة تعني النار
وعشرة هي الشيطان نفسه.

تختلف رموز الأرقام كثيراً من نسخة شعرية إلى أخرى.

وفي الوقت الحاضر، ومع أنه قد تم اكتشاف كل زاوية من هذا العالم، وأرسلت آلات تصوير إلى المريخ وما بعده، فإنه ومنذ بدايات القرن التاسع عشر، اشتكى الشعراء الرومانسيون مثل بلايك وكيتس من حالة الشعور بالخيبة التي يعيشها العالم. فلم يعد ممكناً إرضاء شغفنا بالعجائب برحلة إلى أرض غريبة أو حتى، بالنسبة للكثيرين، عبر اكتشاف الزوايا الغامضة من النفس البشرية. إن رمز التسامي لم يعد طائر العنقاء أو الحصان أحادي القرن، على الرغم من أن هذه الخيالات احتفظت بجمالها. فالغراب مازال رمزاً مرجعياً بعيد المنال سواء أكنا نعيش بين حقول الذرة أم بين ناطحات السحاب، فللغربان بين الطيور الأكثر تواجداً، ولكنها استطاعت الحفاظ على غموضها رغم أنها ليست من بين الطيور الأندر.



صورة تهكمية أخرى للفنان ج.ج. جرانفيل من مجلة الحيوانات (١٨٦٦) وهي تظهر غراباً عجوزاً تكتب تجارب سفرها.

1- بلاد ما بين النهرين

(تأملوا الغربان: إنها لا تزرع. لا تحصد. ليس لها مخدع. لا مخزن ورغم ذلك، فالله يطعمها)

لوقا ٢٤:١٢

لم يعُد الإنجيل يُقرأ أو يُقتَطَف منه كما كان يحدث منذ بضعة أجيال مضت. ومع ذلك فإن الصور والايقاعات الخاصة بالكتب المقدسة المسيحية واليهودية لا تزال أصداؤها قوية في حضارتنا. فكل مخلوق جاء ذكره في الإنجيل يحتفظ بأهمية عميقة. وقد ذكر الغراب عشر مرات في العهد القديم ومرة واحدة في العهد الجديد، وهناك إشارات إنجيلية أكثر بكثير للخراف التي تعد الحيوان المركزي في الاقتصاد اليهودي، ولليمام، الذي يعتبر منذ القدم رمزاً للحب الإلهي. ولكن لم يرد ذكر أي مخاوق أخر في مجالات متنوعة أو بغموض رمزي مثلما ورد ذكر الغراب.

كانت الغربان دائماً مخلوقات متطرفة في الخيال البشري، فهي لعوب ووقور، فوضوية وواضحة، مقدسة ومدنسة. إن العديد من الغربان سوداء بالكامل ولكن الأساطير عبر العالم تخبرنا أنها كانت بيضاء فيما مضى. وكان الشرق الأدنى دائماً مسرحاً لأحداث كبيرة عن الخير والشر والبهجة وسوء الحظ وكما هو متوقع، كان للغربان غالباً دور مهم.

يحتوي الإنجيل على الكثير من الكلمات العبرية ومنها اوريف (orev) وهي تشير للكثير من أنواع الغربان وقد تكون مشتقة من كلمة إريف (erev) والتي تعني «المساء» لأن اللون القاتم للغربان يشبه لون نهاية اليوم. يقوم الشِّعر، إن لم يكن العلم، بتحديد الإشارات الواردة في الانجيل لطيور مثل الغربان بجمالها البسيط والمرعب في وقت واحد. وعلى هذا النحو تم



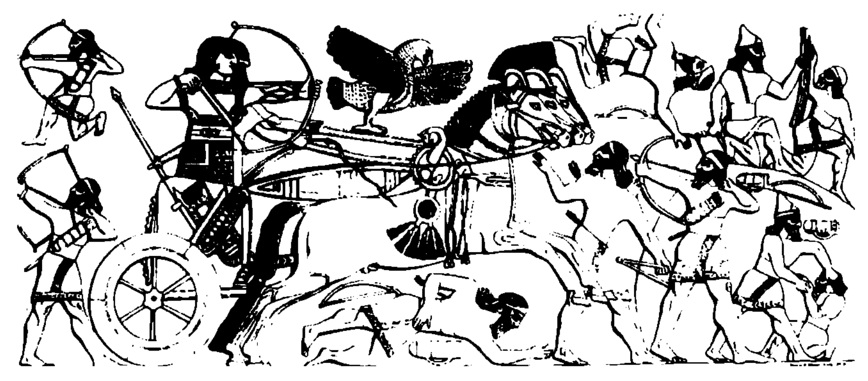
يجسد الغراب العبوس في هذه اللوحة الواردة في كتاب علمي شعبي من القرن التاسع عشر، مما يوحي بضراوته. وفي الخلفية ينظر الغراب الى كبش بدون شفقة وهو ينتظر موته.

تفسير تلك الإشارات منذ القديم وحتى اليوم.

تزدهر الغربان في الأراضي الوعرة مثل التي توجد في الشرق الأدنى، لأنها عادة تخجل من البشر، وعندما تغادر الغربان أعشاشها في الجبال فغالباً ما يكون ذلك لتتغذى على الجثث. وعلى الرغم من أن منظر الغربان قد يكون نذير شؤم بالنسبة للفلاحين فإن قوتها غالباً ما أكسبتها الإعجاب أيضاً. فمعظم الغربان اجتماعية بشكل كبير ولكن الغراب المعتزل يسكن في الوديان والتلال الصخرية.

تعود قصص الغربان في الشرق الأدنى إلى ما قبل النصوص المقدسة لليهودية والمسيحية. وفي الملحمة البابلية المكتوبة بالخط المسماري عن الملك نارام سن والتي عثر عليها في مكتبة الملك آشور بانيبال، ورد ذكر لرجال برؤوس كالغربان قدموا للغزو من جبال الشمال. وقد ظن الملك في البداية أنهم قد يكونوا شياطين ولكنه اكتشف أنهم ينزفون مثل البشر وربما يكون الغزاة محاربين يرتدون خوذاً مزوَّدة بقطع واقية على الأنف على شكل مناقير الغربان.

في ملحمة جلجامش السومرية. البابلية، يقص علينا رجل منفرد اوت-نابيشتيم(١). وهو يسبق نوح الوارد في الانجيل. كيف أنه وزوجته نجيا من



منحوتة آشورية يظهر وسطها طير، يحتمل أنه غراب، وقد وصل ليتغذى على أجساد القتلى في المعركة.

الطوفان الذي دمر ما بقي من البشرية ببناء قارب. وأنه حين بدأت المياه أخيراً بالانحسار، وصل القارب الى جبل نيصير (Nimuh)(٢). وقد كان من عادة البحارة في العصورة القديمة إطلاق الطيور لمعرفة في أي اتجاه ستحلق، وذلك لتحديد مدى قرب الارض. وبعد سبعة أيام أطلق أوت. نابيشتيم يمامة ولكنها لم تجد مكاناً تهبط فيه وعادت الى السفينة، ثم أرسل طائر سنونو ولكنه سرعان ما طار عائداً كذلك. وأخيراً أرسل غراباً بدأ بالأكل والاهتمام بنفسه ولم يعد، وعندها عرف اوت-نابيشتيم أن محنته قاربت على نهايتها وقدّم أضحية امتنان للآلهة.

تُحكى نفس القصة تقريباً عن نوح في (سفر التكوين ٦:٨-١٢) مع بعض الاختلافات المهمة؛ حيث أن فُلك نوح رسا على جبل أرارات(٣). وفي البداية أرسل نوح غراباً ولكنه حلق جيئة وذهاباً ولم يعد بأنباء عن الأرض، ثم أرسل يمامة لم تعثر بدورها على موطئ قدم وعادت الى الفُلك. وبعد انتظار دام سبعة أيام أرسل نوح اليمامة ثانية ولكنها هذه المرة عادت بغصن زيتون في منقارها.

لقد تطورت قصة اوت- نابيشتيم إلى قصة نوح، وحلت يمامة أخرى محل السنونو الأصلي، والأكثر أهمية أن عدم نجاح الغراب في العودة اتخذ معنىً مناقضاً للأصل، فبدلاً من الإشارة إلى وجود الأرض والتي تشكل

السبب الأكثر منطقية لعدم عودة الغراب فقد أصبحت ترمز للتقصير في أداء الواجب.

يعتقد اليهود ويوافقهم في ذلك الكثير من المسيحيين أن الحيوانات لم تأكل اللحم حتى ما بعد الطوفان، وإلا فلن يكونوا قادرين على الحياة معا في الفلك. ويعتبر الغراب في القانون اليهودي طائراً نجساً، كونه طائراً جارحاً، وذلك موضح في سفر اللاويين(٤) وأماكن أخرى.

ويقضي أحد التفاسير لقصة نوح في التلمود(٥) بأن الغراب لم يُرسل للبحث عن الأرض، بل إنه نفي من الفُلك بسبب جريمة ارتكبها قد تكون مهاجمة كائن آخر أو ربما لمحاولته التزاوج على ظهر الفُلك، في حين أن آخرين يقولون إن الغراب لم يعد لأنه بدأ بالاقتتات على جثث الأموات العائمة. ويذكر التلمود أن الغراب قد خاض جدالات حادة مع نوح. وقد اشتكى الغراب في إحدى جلسات محكمة العدل (Sanhedrin)(٦) من أنه قد تم حفظ زوجين من فصيلته في حين أن سبعة أزواج من كل الفصائل التي تعتبر طاهرة قد حُفظت ثم يقترح أنه ربما كان لنوح نوايا جنسية مع قرينته.

ولو فكرنا في الفُلك على أنه تجربة عظيمة في تدجين الحيوانات فلربما تسجل قصة نوح مع الغراب عدم قدرة حيوانات معينة على إطاعة الأوامر البشرية. وقد اقترح كُتّاب التراث الشعبي أن هذه القصة قد تكون في مرحلة ما قصة سببية (تندرج تحت علم الأسباب) حيث كان الغراب أبيض اللون أصلاً ولكن حلّت عليه اللعنة لعدم عودته إلى الفُلك فأصبح أسودَ. على أية حال، إن وجدت مثل هذه العقوبة فإن الانجيل لم يذكر أن عقوبة طُبقّت على الغراب من أي نوع.

لقد أصبحت قصة نوح والغراب بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين، نقطة التحول الحاسمة في العلاقات بين البشر والطبيعة، ووفقاً للعديد من النواميس، فإنه بموجب العهد الجديد ليهوه (أي: الرب) فقد الناس القدرة على فهم الحيوانات بعد انحسار الفيضان، ولكن الغربان والحيوانات المتصلة

لوحة ألمانية تصور قصة المثل ١٧:٣٠ من سفر الأمثال[٨] من منتصف القرن الثامن عشر، حيث نرى في المقدمة شاباً يهزأ من والديه وفي الخلفية يظهر المصير الذي ينتظره وهو أن تنقر الغربان عينيه بعد موته.

بها وخاصة غراب العقعق تمتلك نداءات تشبه التي تصدر عن الأصوات البشرية. وتقول إحدى الأساطير الواسعة الانتشار في أوروبا إن غراب العقعق لم يسمح له بالدخول الى الفُلك لأنه كان يحدث ضجة كبيرة، وبدلاً عن ذلك فقد وقف على السطح يثرثر باستمرار في حين كانت المدن تغرق تحت الأمواج. وتقول أسطورة بريطانية أن غراب العقعق هو هجين بين اليمامة الأولى والغراب اللذين أرسلهما نوح ولهذا فلونه مزيج من الأبيض والأسود.

وفي المقاطع التالية من الانجيل تظهر الغربان وكانها أدوات للرب. فبينما كان النبي ايليا يختبئ في البراري من الملك أخاب الذي أدين لعبادته صنم بعل، كان يهوه (الرب) قد أمر الغربان بأن تحضر للنبي الخبز في الصباح واللحم في المساء (سفر الملوك الأول ١٧:٦). ولكن كيف وماذا أطعمت الغربان النبي بالتحديد؟ بعض المفسرين العلمانيين اقترحوا أن النبي ايليا قد استخدم الغربان لتدله على الحيونات النافقة ولكن هناك الكثير من المشاكل الجدية من وجهة نظر التقاليد اليهودية في هذه الحالة. وحتى إن كانت الغربان تحضر له اللحم الميت، فكما ذكرنا سابقاً فإن الغربان وآقاربها تُصنف بوضوح بين الطيور (النجسة) في الانجيل (سفر اللاويين ١١:١٥) والأكثر من ذلك فإن الجيف مكروهة بشدة لدى اليهود لدرجة أن من يمس جثة يبقى نجساً حتى حلول المساء (سفر اللاويين ١١:٢٤). فإن كان الطعام الذي تحضره الغربان يشابه ما تأكله الطيور عادة فهو ليس طعاماً يؤكل، فقام بعض المفسرين اليهود بحل هذه المشكلة بالقول إن الغربان كانت تحضر الطعام لإيليا من مائدة الملك يهوشافاط(٧). ولكن كيف عرفت الغربان أي أطباق الملك كانت طعاماً مباحاً فيي الشريعة اليهودية؟

بل إن أحد المقاطع في الانجيل أوحى للعديد من الأشخاص أن الرب يُكن محبةً خاصاً للغربان: (من يهيئ للغراب صيده بينما تنعب فراخه الى الله وهي تحني رقابها جوعاً؟) (سفر أيوب ٣٨:٤١)(٩). ويذكر يالكوت شيموني Yalkut Shimon، وهو تفسير للتلمود وُضع في القرن الثالث


TAB. DLXXXV.

عشر، هذه المحبة من خلال القصة التي تحكي كيفية تعليم الغراب لآدم وحواء القيام بأول عملية دفن ميت وذلك بعد موت ابنهما هابيل حيث لم يكن أبو البشر وأمهم يعرفان ماذا يفعلان فجاءهما غراب وقتل رفيقه ثم حفر حفرة في الأرض ودفن الجثة وقام الثنائي البشري بدفن ابنهما كتقليد لما فعله الغراب. وكتعبير عن امتنان الرب لمساعدة الغربان لآدم وحواء فهو يتولى إطعام صغار الغربان حتى ينمو ريشها الأسود، وبعدها يتولى الأبوان هذه المهمة.

ترد الإشارة إلى الغربان في الانجيل كرمز للخراب في بعض الأحيان، حيث يذكر سفر صفنيا(١٠) أنه بعد خراب نينوى «سيسكنها الغراب والبوم» (صفنيا ١٤:٢) ويذكر سفر أشعيا(١١) أنه بعد خراب آشور ... «تنعق الغربان على عتبات الأبواب» (١١:٣٤). وكذلك ورد ذكر الغربان على أنها سوط عذاب الرب:

(العين المستهزئة بابيها والمحتقرة لطاعة امها تقوّرها غربان الوادي ....) (سفر الأمثال ١٧:٣٠)

ولكن الانجيل أيضاً يمنح الغربان روعة خاصة. ففي سفر نشيد الأنشاد(١٢) (٥:١١) يثني على شعر العريس بأنه (حالك كالغراب). وبهذا تبدو الغربان كأنها تعيد التفاوض باستمرار في علاقتها مع الرب كما يفعل البشر تماماً.

هوامش

١ اوت- نابيشتيم: بطل الطوفان في ملحمة جلجامش.

٢ جبل بين نهر دجلة والزاب الأسفل.

٣ جبل الجودي في تركيا.

٤ من أسفار الكتاب المقدس. العهد القديم.

٥ التلمود: هو الكتاب الذي يحتوي الشريعة اليهودية ويدعي اليهود أن موسى ألقاه من طور سيناء على بني اسرائيل ليحفظه عند هارون ثم تلقاه يوشع ثم اليعازر وهلم جرا...

٦ هو الاسم التلمودي للمحكمة الدينية اليهودية العليا في أرض اسرائيل خلال فترة الهيكل المقدس وهي تتألف من ٧١ حكيماً.

٧ ملك مملكة يهوذا وقد عرف بصلاحه وإطاعته للرب.

٨ أحد أسفار الأنبياء، الكتاب المقدس. العهد القديم.

٩ أحد أسفار الأنبياء، الكتاب المقدس. العهد القديم.

١٠ أحد أسفار الأنبياء الصغار، الكتاب المقدس. العهد القديم.

١١ أحد أسفار الكتاب المقدس. العهد القديم.

١٢ أحد أسفار الكتاب المقدس. العهد القديم٢ مصر واليونان وروما.

2. مصر واليونان وروما

كل شيء آلَ للغربان!

قصة النشوء[١] (القرن السادس قبل الميلاد)

يعكس تصوير الغرابيات في حضارات المتوسط القديمة تطور المواقف نحو عالم الطبيعة، حيث أن المصريين، الذين لم يقوموا بوضع حواجز قاسية بين عالم الطبيعة وعالم البشر، فكروا بالغربان على أنها ذات عاطفة قوية وروح مرحة. وتابع اليونانيون على هذا المسار ولكنهم في بعض الأحيان كانوا ينظرون إلى الغرابيات بخوف وخشية وضحك عصبي.

نظر اليونانيون الى الطبيعة على أنها تمتلك قوىً هائلة ولا تنضب ويمكن خشيتها أو طلب رضاها ولكن نادراً ما تتم السيطرة عليها. وكانوا دائماً منخرطين في حروب يتوقع الخاسر فيها أحد مصيرين: إما أن يُقتل أو يُباع كعبد؛ وأيضاً كان هناك خراب متكرر بسبب المجاعة أو الأوبئة. وكانت الغرابيات غالياً ما تُرى وهي تنقر جثث الحيوانات أو حتى البشر، ولم يكن مرحباً بهم في عالم كانت الحياة فيه شيئاً عابراً بالنسبة لليونانين، حيث تمثل الغرابيات عالم الطّبيعة المثابر حتى في المدن، فهي مخلوقات عصّية على سيطرة البشر أو حتى الآلهة.

عبر القرون القليلة التالية، منحت الامبراطورية الرومانية الواسعة في عهد اوغسطوس وخلفائه مواطنيها نوعاً من الأمان على الرغم من جميع نزاعاتها الداخلية، وعلى الرغم من الحروب المستمرة التي كانت تنشب عادة عند الحدود الأمامية البعيدة للإمبراطورية. وهكذا جاز للناس أن يفكروا في أنفسهم ليس بالضرورة على أنهم سادة الأقدار ولكن على الأقل في أنهم ليسوا ضحايا يائسين. كان كتّاب المأساة (التراجيديا) والشعراء اليونانيون يندبون بانتظام حال البشر، ولكن الرومان تقبلوا تلك الحالة بدون احتفاء

(١) شاعر يوناني من القرن السادس قبل الميلاد.

أو شكوى. وبينما شدّد اليونانيون باستمرار على ضعف الانجازات البشرية فقد اعتقد الرومان أن امبراطوريتهم قد تستمر حتى آخر الزمان. كانت فكرة الرومان عن الطبيعة أقل خوفاً وأكثر رعويّة وتعمقت هذه الفكرة بازياد تعداد سكان روما حتى وصل الى أكثر من مليون نسمة وحلّت الاقطاعيات الهائلة التي يعمل فيها العبيد محل المزارع الصغيرة. كان الرومان يستطيعون رؤية الغربان بعاطفة كادت أن تكون غير واردة بالنسبة لليونانيين.

غالباً ما تظهر الغربان في مصر وهي تتغذى على الجثث، وبشكل أقل وهي تقتات على الأجساد المنتشرة في ساحة المعركة. وتبدو متوحشة، عادة في شكل يمكنٍ تحمله، وتكاد تكون بشرية ولكنها على عكس طائر أبو منجل أو الصقر مثلاً، ليست سماوية على الاطلاق. إن البرديات الساخرة التي عثر عليها في تورين وتعود الى عصر الرعامسة الممتد بين (١٣٠٧-١٠٧٠ قبل الميلاد) تتضمن صورة غراب يصعد سلما إلى شجرة تين بجناحين مبسوطين في الوقت الذي يجمع فيه فرس النهر سلة من التين من أغصانها. احتفظ المصريون بالعديد من السجلات الدقيقة لتعاملاتهم التجارية ولكنهم كتبوا القليل جداً عن أساطيرهم، ونحن نعلم قصص آلهتهم في المقام الأول من خلال تقارير اليونانيين والرومان. وأوورد أيليان Aelian وهو كاتب روماني هيليني من القرن الثاني الميلادي أن قارون الفرعون المصري استخدم غرابا داجناً لنقل الرسائل إلى أي وجهة يشاء.

ووفقاً لحورأبولو[١] الكاهنِ المصري. اليوناني من القرن الثالث قبل الميلاد، كان الغراب رمزاً مهماً في مصر، وإن لم يكن ذلك بالضرورة مرتبطاً بالدين. مثّلت الغربان الحب المخلص، لأنها وكما لاحظ أهل العالم القديم بدقة، طيور أحادية الزواج. وكتب حورأبولو أنه عندما كان المصريون يرغبون بإظهار الوحدة بين آريس، إله الحرب، وأفروديت، إلهة الحب، كانوا يرسمون غرابين، لأن الغراب دائماً ما يضع بيضتين يفقس منهما ذكر وأنثى يعيشان معاً طيلة حياتهما، ويشرح حورأبولو في كتاباته انه أحياناً يفقس ذكران أو

(١) اسم مزيج من حورس. ابولو وكان من آخر الكهنة المصريين.

انثيان معاً فهما محكومان بحياة العزوبية ولهذا السبب فإن مشهد الغراب الوحيد يعد نذير شؤم.

ولكن زوجاً من الغربان يرمز الى الزواج في حين ترمز الغربان الصغيرة الى القلق وعدم الاستقرار بما أن الغراب الأم تطعم صغارها على جناحها.

تتشارك الحمائم سمعة الغرابيات في الزواج الأحادي بالرغم من ضعف التبرير بالنسبة إليها وعلى كل حال هناك فرق كبير في التأكيد الرمزي لنوعي الطيور هذين؛ حيث ترتبط الحمائم بالمثالية وغالباً بالحب السماوي في حين تمثل الغرابيات الزواج بكل واقعيته الأرضية، وبينما تستعمل الحمائم لترمز للخطوبة تمثل الغربان إتمام الزواج. كتب حورابولو أيضاً أن الحمامة السوداء هي رمز الأرملة التي تبقى مخلصة لزوجها، على اعتبار



لوحة من العصور الوسطى لا يعرف تاريخ رسمها بالتحديد وهي تصوّر زِيوس وكاهناته وغرابين (الحمائم السوداء من دودونا Dodona)[1].

(١)- تقع في الشمال الغربي لليونان وهي موقع نبوءات منذ ما قبل التاريخ كان مكرساً للآلهة الأرض الأم غايا ثم ارتبط بالاله اليوناني زيوس

ان هذه الطيور تتزاوج مدى الحياة وبما أنه لا وجود للحمائم السوداء في الطبيعة عادة فمن المحتمل أن حورابولو كان يشير الى الغراب هنا كذلك. وذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت الحمائم السوداء في مقطع مشهور كتبه خلال القرن الخامس قبل الميلاد

كتب هيرودوت[1] أن حمامتين سوداوين طارتا من طيبة[2] في مصر، اتجهت إحداهما الى ليبيا وطارت الأخرى إلى شجرة بلوط في بستان زيوس في دودونا. وأرشدت الحمامة في ليبيا الناس ليصنعوا مقاماً للإله آمون. وتحدثت الحمامة في دودونا بلسان بشري وأخبرت الناس أن البستان سيكون مكاناً للنبوءات. وبحلول الوقت الذي عاش فيه الشاعر هومر أصبحت دودونا أكثر المزارات قداسة في اليونان. تحدث زيوس، إله النماء والخضرة من خلال أصوات أوراق الشجر والتي كانت الطيور تجعل لها حفيفاً وفي النهاية حُجبت أصوات الأوراق والرياح المتقنة بضجيج الزوار الذين أتوا الى دودونا بأعداد متزايدة. وقال الكهنة إن صوت الإله يمكن أنْ يسمع من خلال أصوات كرات معلقة فوق بركة عندما تحرك الرياح هذه الأجسام الكروية لتضرب الحافة.

اعتقد هيرودوت أن الحمامتين السوداوين كانتا كاهنتين مصريتين بيعتا الى العبودية وكانتا تلقبان بالسوداوين بسبب لون بشرتهما القاتم وبالحمامتين لأن لغتهما كانت تبدو مثل نداءات الطيور. ومع ذلك فإن الغرابيات لها قدرة على إطلاق مجال استثنائي من الأصوات واشتهرت منذ العصور القديمة بقدرتها على تقليد الأحاديث البشرية، وهي أيضاً ترتبط بشكل عالمي بالنبوءات لذلك فمن المحتمل أنها كانت مصدر الوحي لنبوءات دودونا.

ارتبطت الطيور بشكل عام بالنبوءات في حضارات اليونان والرومان

---

(١) الباحث والقاص اليوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ويعتبر أول المؤرخين

(٢) مدينة طيبة: مدينة مصرية قديمة اعتبرت لعدة قرون عاصمة مصر القديمة تقع جنوب البحر المتوسط بحوالي ٨٠٠ كم وتمتد على ضفتي النيل.

وربما كانت الغربان تلي النسور فقط في الأهمية. ففي كتاب هومر الأخير الالياذة يصلي الملك بريام من أجل فأل حسن قبل الذهاب للتفاوض على فدية جثة ابنه هيكتور الذي قتل على يد أخيل. ومباشرة يظهر نسر أسود كبير وعرف الملك أن البعثة ستكون بلا جدوى. كان وصف نسر (Aquila هي الكلمة اللاتينية التي تعني النسر) يستعمل بحرية للإشارة الى طيور الصيد الكبيرة بما فيها الصقور والنسور. ولا يوجد نسر عادي أسود اللون تماما وربما كان النسر الأسود غراباً على الأرجح.

كانت الغربان وخاصة الغربان ذوات القلنسوة تعرف بشكل خاص كرموز للزواج الميمون وفي حفلات الزفاف الأثينية كان الناس يغنون (أغنية الغراب) على أمل أن يكون الزوجان مخلصين لبعضهما ويُبارك اتحادهما بالأطفال:

السادة الأعزاء، امنحوا ملء قبضة من الطحين للغراب
ابن أبولو أو طبقاً من الطحين
أو رغيفاً أو قرشاً أو ما تشاؤون ..(١)

كان الغناء عادة تشبه الترانيم الحديثة ولعل الأطفال كانوا يغنون هذه الأغنية في بعض الأحيان مقابل هدية صغيرة.

وعلى هذا، فإن الغربان كانت مقدسة لدى هيرا[١] وكذلك بالنسبة لنظيرتها الرومانية جونو[٢]. كتب ابولونيوس روديس[٣] في القرن الثالث قبل الميلاد كتابه رحلة أرغو[٤] وفيه يواجه البطل جايسون مهمات شبه مستحيلة في رحلته للحصول على جزة الصوف الذهبية، وتأتي الإلهات أثينا وافرودويت وهيرا لمساعدته من خلال إيجاد المشعوذة القوية ميديا

(١) ملكة آلهة الأولمب، زوجة وشقيقة زيوس وإلهة الزواج في الأساطير الاغريقية.

(٢) إلهة الزواج وزوجة الاله جوبيتر في الأساطير الرومانية.

(٣) شاعر ملحمي وعلامة ومدير مكتبة الاسكندرية عاش في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد.

(٤) أرغو هو اسم السفينة التي أبحر عليها جايسون والمغامرون لاستعادة الصوف الذهبي.

والتي تقع في حب الشاب. وبعد وقت قصير كان جايسون يسير بصحبة موبسوس Mopsus سيد النبوءات إلى جانب شجرة حور والتي كانت مكان الغربان المفضل. وأرسلت هيرا أحد الطيور ليقول لموبسوس: «من هو هذا المتنبئ المغمور الذي لم يستطع أن يلاحظ ما يعرفه حتى الأطفال، وأن الفتاة لا تسمح لنفسها بقول كلمة حب واحدة الى الشاب الذي يحضر معه مرافقاً؟ ابتعد ايها المتنبئ الأحمق» (الكتاب الثالث، الأسطر ٩٢٣-٥١). وفهم موبسوس فوراً أن هيرا قد قامت بترتيب لقاء بين ميديا وجيسون وحدهما وانسحب بسعادة. وبمساعدة ميديا كان جايسون قادراً على مراوغة التنين الذي يحرس جزة الصوف الذهبية والهرب بالجائزة نحو السفينة.

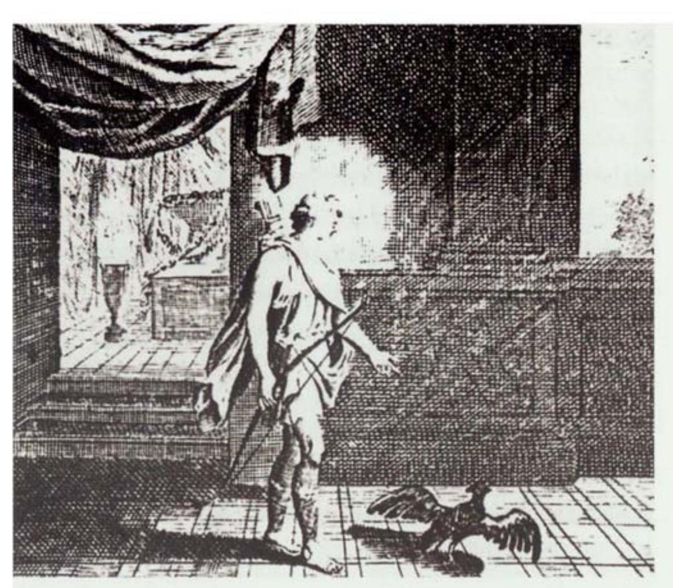
إنَّ ازدواجية الثقافة اليونانية. الرومانية فيما يخص الغربان يُعبِّر عنها أيليان[1] Aelian أحسن تعبير فقد كتب أن الغربان تربط فيما بينها علاقة حب قوية وأبداً لا تشترك في علاقات جماعية. لكن وجود الغراب الوحيد في حفل زفاف كان يعتبر لهذا السبب بالتحديد فأل شؤم مما يوحي بأن أحد العروسين سيموت قريباً.

ووفقاً للأساطير والخرافات لم تكن الغرابيات على وفاق تام مع الآلهة لأنها مشهورة بسرقة اللحم الذي يترك على المذابح. وبحسب إحدى خرافات ايسوب والتي يقصها بابريوس Babrius اليوناني أن غراباً مريضاً طلب من أمه أن تصلي للآلهة من أجل شفائه ولكنها أجابته بأنه ليس من المحتمل أن يقوم أحد من الآلهة بمساعدة ابنها بما أنه قد سرق منهم جميع القرابين التي قدمت اليهم.

في النهاية حل الطاووس محل الغراب في خدمة هيرا. وفي إحدى الخرافات الشعبية والتي كان أول من قصها فايدروس[2] Phaedrus، أن

(١) كلاوديوس ألاينوس: كاتب ومعلم روماني عاش في الفترة من ١٧٠. ٢٣٥ ق.م أتقن اليونانية وكتب بها.

(٢) كاتب روماني اعتنى بكتابة الخرافات عاش في الفترة من ١٥ ق.م حتى ٥٠ ميلادي، عُرف على أنه أول كاتب يقوم بترجمة الخرافات اليونانية الى اللاتينية.



الغراب الأبيض في الأصل وقد حوله أبولو الى اللون الأسود بسبب أخبار سيئة نقلها له.
هذه الصورة من النسخة الفرنسية الصادرة في القرن السابع عشر لقصيدة أوفيد[1] التحولات[2] Metamorphoses.

غراب زيتون التقط بعض ريش طاووس ليزين نفسه به ثم تخلى عن جنسه وحاول الالتحاق بسرب الطواويس.

فقامت الطيور بمهاجمته فوراً وجرّدته من الريش واستمرت بنقر الغراب المسكين حتى طار بعيداً وحاول الانضمام ثانية الى بقية الغربان ولكنهم لم يقبلوا به. وتضيف العديد من روايات هذه الخرافة نصيحة اخلاقية بأن على المرء ألا يطمح الى الارتقاء فوق موقعه في الحياة.

وكذلك كان الغراب مقدساً لدى أبولو، إله الشمس والموسيقى الذي اتخذ شكل غراب أو صقر في إحدى المرات عندما فرّت الآلهة إلى مصر لتختبئ من الوحش تيفون Typhon. وبالرغم من ذلك فإن العلاقات بين أبولو والغربان لم تكن تبدو في العادة متناغمة جداً. تأتي الكلمة اليونانية المرادفة للغراب corone كورون من اسم حسناء كانت عشيقة أبولو، وبحسب الرواية التي يقصها ابولودوريس Appolodorus فإن كورونيس، كما كانت تدعى، أقامت علاقة مع أبولو ولكنها تزوجت من شاب يدعى

(١) فيبلوس اوفيديوس ناسو: شاعر روماني عاش في الفترة من ٤٣ ق.م وحتى ١٧ ميلادي

(٢) قصيدة قصصية مؤلفة من خمسة عشر كتاباً تحكي قصة الخلق وتاريخ العالم.

إسكيس Ischys، وقام الغراب، الذي كان أبيض اللون حينها، بإبلاغ أبوللو نبأ الزواج فحوّل الاله الغراب الى اللون الأسود في غمرة غضبه ربما من خلال شعلة نار أصابته حتى احترق ريشه. بعدها قام أبولو بحرق كورونيس حتى الموت ولكنه أنقذ طفلاً كان في رحمها، أصبح فيما بعد الطبيب العظيم اسكليبيس Asclepios. وتهدف القصة إلى شرح الجانب المزدوج للغراب كونه طائراً يقوم في الصباح بتحية الشمس بندائه. ريشه في لون الليل.

إنَّ حقيقة أن الغراب يحمل اسم الحسناء يوحي أنه في الروايات المبكرة لهذه القصة تحولت الفتاة نفسها الى غراب. ومن المهم أن نلاحظ أن الفتاة قُتلت ليس بسبب اقامتها لعلاقة بل بسبب زواجها من بشري. وربما كان الإغريق في إحدى الفترات يعتبرون زوج الغربان على أنهما كورونيس واسكيس. وعلى أي حال فإن هذه إحدى القصص الأولى حول حسناء تتزوج شخصاً أدنى منزلة منها مفضّلة الحب على الزواج السياسي لأجل المنصب والنفوذ.

وروى أوفيد في قصيدته فاستي[1] Fasti رواية أخرى مفادها أن إله الشمس لم يكن راضياً عن خادمه الغراب. وبينما كان أبولو يحضر لوليمة من أجل جوبيتر، أرسل الإله غراباً ليحضر الماء من الينبوع، وأخذ الغراب دلواً وطار في الهواء ولكنه لمح شجرة تين محمّلة بالثمار فهبط الغراب وتذوق التين ووجد أن الثمار ليست ناضجةً بعد فجلس هناك حتى نضجت ثمار التين وأكل حتى شبع ثم فكر بواجبه نحو الإله. والتقط ثعبان ماء وطار عائداً إلى أبولو وقال إن الثعبان اعترض مسار الجدول. واكتشف أبولو الكذبة وأعلن أنه على الغراب ألا يشرب من ماء الينبوع حتى تنضج ثمار التين على الأشجار ولهذا تتخاطب الغربان بصوت خشنٍ من العطش. ثم قام أبولو بوضع الغراب والدلو والأفعى في دائرة البروج ليُذَكر الناس بحماقة الغراب.

إلا أن القليل من الأساطير اليونانية جعلت كورونيس وصيفة أثينا، إلهة

---

(١) قصيدة لاتينية تتناول التقويم الروماني وقد كتبها أوفيد في منفاه في توميس قرب نهاية حياته.

الحكمة والحرب. وقد روى الجغرافي الروماني باوسانيوس[1] Pausanius في كتابة الطريق الى اليونان أن مدينة كورون اليونانية أقامت تمثالاً لأثينا وهي تحمل في يدها الممدودة غراباً بدلاً من البومة المعتادة. وفي نسخة بديلة لقصة كورونيس أعاد روايتها أوفيد في كتابه التحولات Metamorphoses جعلها فتاة شابة جميلة لها العديد من الخاطبين ثم رآها إله البحر وافتُتن بها ولكنها رفضت محاولاته التقرب منها. وعندما بدأ الإله بملاحقتها تضرعت الحسناء إلى مينرفا، نظيرة أثينا الرومانية وفجأة وجدت الفتاة نفسها ترتفع فوق الأرض، فقد حولتها الإلهة الى غراب.

ومع ذلك فإن أغلب الكتّاب تحدثوا عن الخصومة بين الغراب وبين أثينا. وفي إحدى الحكايات، قامت الإلهة بزيارة ورشة هيفستوس إله الحدادة فحاول الاعتداء عليها. صدّت أثينا محاولاته ولكنها لاحظت أن مهاجمها قد ترك بعض السائل المنوي على إحدى ساقيها، مما أثار امتعاضها، فقامت بإزالته بقطعة من الصوف وألقتها على الارض. أخصب هذا المني الأرض الأم فأنجبت طفلاً يدعى إريشثونيس[2] Erichthonius وقامت أثينا بإخفاء الطفل في سلة مغطاة عهدت بها إلى ثلاث أخوات. لكن الفضول تملّك الشقيقة الكبرى وفتحت السلة فأصابها الرعب عندما وجدتْ طفلاً تحيط الأفاعي بجسده. ونقل الغراب ما حدث الى أثينا التي ناصبته العداء منذ ذلك الحين. ربما تشير الحكاية إلى أن صرخة الغراب هي نوع من الإعلان عن قدوم الصباح وكشف أسرار الليل.

في إحدى حكايات ايسوب الخرافية، قدم غراب أضحية الى الإلهة أثينا ودعا كلباً الى وليمته. وأشار الكلب أنه لا جدوى من الأضحية على اعتبار أن المعبودة تكره الغراب على أي حال. فأجاب الغراب «أعرف أنها لا تحبني ولكني أضحّي لها لعلها تتصالح معي»(٢). ومثلما تقوم الغربان بأكل الأضحيات المقدمة للآلهة فإن الغربان أيضاً قد تقوم بالتهام أجساد

---

(١) رحالة وجغرافي يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي

(٢) اسمه يعني المشاكل المولودة من الأرض.

الرجال الطريحة على الأرض. وتقص إحدى الخرافات اليونانية أن رجلاً كان ذاهباً إلى الحرب وسمع نداءات الغربان المزعجة تتعالى فوق رأسه فتجمد من الخوف والتفت الى الطيور وقال «تستطعيون أن تصيحوا بأعلى ما تستطيعون ولكنكم لن تجعلوا مني طعاماً لكم»(٣). وفي الكوميديا التي كتبها ارسطوفانيس Aristophanes بعنوان الطيور تستخدم إحدى الشخصيات عبارة «ليكن مصيرك الى الغربان!» (السطر ٢٨). وهذه العبارة هي أصل اللعنة المشهورة «ليكن مصيرك الى الكلاب!» والتي كان لها في ما مضى معنى أكبر مما تحمله اليوم. فقد كانت تعني الموت وحيداً حتى تلتهم الكلبيات والغربان جثث هؤلاء الذين لم يُدفنوا فوراً.

لكن الناس لم يستطعوا سوى ملاحظة أنه وبدون مساعدة كبيرة سواء من الإنسان أو الألهة فإن الغربان تزدهر في المدن. وكانت الغربان ترمز بالنسبة لليونان والرومان لطول العمر. وهذا الترابط ليس وهمياً بالكامل على اعتبار أن العديد من الغربان يمكن لها أن تحيا ٢٠ عاماً أو أكثر في حين أن الغربان السوداء يمكن أن تحيا حتى تتجاوز الثلاثين. وتذكر فقرة مقتطفة من عمل إيسود الضائع نقلها بلوتارك وهي بعنوان وصايا شيرون أن الغراب



جعلت الحياة المديدة التي تتمتع بها الغربان منهم شعارات نبالة مهمة، كما يبدو ذلك في درع هاري هولمز-تارن. حيق يقرأ الشعار اللاتيني: (كن مفعما بالحيوية في الابدية).

يعيش حياة تسعة أجيال من الرجال المعمرين. وأضاف أن حياة الظبي تبلغ أربعة أضعاف حياة الغراب ولكن الغراب الأسود يعيش حياة أطول بثلاث مرات من حياة الظبي. وإذا افترضنا أن الرجال المعمرين يعيشون ٧٠ عاما فإن عملية حسابية بسيطة توضح لنا أن حياة الغراب تعادل ٦٣٠ عاماً بينما يعيش الغراب الأسود ٧٥٦٠ عاماً كاملة.

وفي حوار ممتع كتبه بلوتارك عادة ما يُعنْوَن «حول استخدام العقل لدى الحيوانات اللاعقلانية» يحاول اوديسيوس، وهو رجل مشهور بفطنته، عبثاً مجادلة خنزير يدعى جريلوس حول تفوق الجنس البشري. وعندما يدَّعي البطل اليوناني أن البشر أظهروا أخلاقيات أعلى يجيبه الخنزير بهذا الجواب المعاكس: «بالنسبة لما تتمتع به بينلوبي زوجة أوديسيوس من قدرة على قهر النفس، فإن اعداداً لا تحصى من الغربان التي تنعب ستقع من الضحك والازدراء، لأن أي غراب يخسر زوجه يحيا وحيداً وليس لوقت قصير بل ما يعادل حياة تسعة أجيال بشرية». في حين أن حورأبولو قدّر حياة الغراب بتواضع أكثر بحوالي ٤٠٠ سنة. وعلينا ان نتذكر أنه في عصر كان معدل الحياة المتوقع يتجاوز بقليل العشربن عاماً فإن طول العمر كاَن قيماً جداً ويرتبط بالحكمة بشدة.

في القرون الاولى للحضارة اليونانية. الرومانية كانت النبوءات التي تعتمد على الطيور بديهية، وفيها يكون الظهور الدراماتيكي لحياة الطيور في اللحظات الحاسمة رسالة من القدر. كتب بلوتارك عن حياة الإسكندر العظيم أن الغربان أو الغربان السوداء أرشدت الفاتح المشهور وجيوشه إلى معبد آمون في مصر حتى أن الطيور كانت تصيح عندما يتوه الجنود حتى ترشد من انعزل منهم الى طريق العودة الى الجيش. وعلى الرغم من ذلك فإن الغربان فيما بعد تكهنت بموت الاسكندر عندما اقتتل سربان من الغربان بجانب أسوار بابل وسقطت عدة غربان عند قدميه.

إلا أن النبوءات أضحتْ تدريجياً مسألة قواعد معقدة. فقد كتب المسرحي الروماني بلوتوس كوميديا الحمير في القرن الثالث قبل الميلاد وورد

فيها أن رجلاً واجه قراراً صعباً فقال «لدي نبوءاتي وبشائري: ستقودني الطيور إلى حيث أرغب! نقار الخشب والغراب إلى اليسار والغراب الأسود وبوم الحظائر الى اليمين، وهم يقولون «امض الى الأمام!»(٤). بعد حوالي قرنين من الزمان أصبح الرومانيون متشككين بازدياد، وسأل شيشرون بشكل بلاغي نوعاً ما في دو ديفيناشون (حول الكهانة) لماذا يُعتبر الغراب الذي يطير نحو اليمين فألاً حسناً، بينما الغراب الذي يطير الى اليسار علامة على سوء الحظ.

هناك العديد من الإشارات إلى الغرابيات في الأدب اليوناني القديم، ولكن من المستحيل معرفة أي الفصائل هي المعنية بذلك تماماً. وغالب الأمر إن اليونانيين أنفسهم لم يحاولوا حتى استخدام التسميات بانتظام، على الأقل ليس قبل المحاولة الأولى لأرسطو لدراسة الحيوانات بشكل علمي. وغالباً ما تترجم كلمة كورون korone على أنها غراب، في حين أن كلمة korax تترجم على أنها غراب أسود. وهي نفس المعاني التي تحملهما هاتان الكلمتان في اليونانية اليوم. يشير أرسطو في كتابه تاريخ الحيوانات Historia Animalium إلى الغراب على أنه رمادي جزئياً مما يوحي بأنه كان يفكر في الغراب ذي القلنسوة (كورفوس كورون كورنيكس(Corvus corone cornix. ولكن حينها، ماذا عن الغراب آكل الجيف والذي لم يبدُ أن أرسطو ذكره على الاطلاق؟ إن مجاله لا يشمل اليونان ولكن لا بد أن المسافرين كانوا يعرفون هذا الطير.

ذكر أرسطو أيضاً أن كلاً من الغراب الأسود (korax») والغراب (crow) كانا طيوراً تفضل العيش في المدن، وكلاهما قد ينجذب للبقايا التي يتركها البشر، ليس فقط للأضحيات ولكن للفضلات أيضاً. ولا تزال الغربان اليوم كما في العصور القديمة قادرة على الازدهار في المدن وضواحيها، مثلها مثل القوارض. ويمكن العثور على الغربان في أي منطقة صغيرة تحتوي أشجاراً وعشباً وهي تظهر إبداعاً لا نظير له في نقر أكياس القمامة لفتحها، وتوجد الغربان السوداء في المناطق المدنية كذلك، على الرغم من أن القليل

من الناس يشعر بوجودها. إنها تخجل من البشر ولكن المباني المرتفعة تشابه مساكنها الجبلية، وغالباً ما تقيم أعشاشها على الأسطح. ومن غير المحتمل أن يكون الغراب الأسود قد تجنب الاحتكاك بالبشر بين المباني الصغيرة لليونان القديمة ومن الممكن أن تكون كلمة (korax») لا تسمي الغراب الأسود فقط ولكن أيضاً الغراب آكل الجيف وربما غراب الروك فجميعها سوداء.

كان كتاب ارسطو تاريخ الحيوانات Historia Animalium أول كتاب علمي يتحدث عن علم الحيوان وكان في أغلبه دقيقاً على نحو لافت للنظر. على الرغم من أنه تضمن خرافات معينة مثل الفكرة التي تقضي بان الماعز تُصاب بالعمى بعد أن ترضع منها طيور السُبّد nightjars. ولاحظ الكاتب بحرص أن الغربان تعتني بصغارها لفترة أطول بكثير مما تفعل أغلب الطيور، وتستمر الرابطة بين الآباء والأطفال حتى بعد أن تتعلم الصغار الطيران.

ومع ذلك كانت لغة الكتاب مجازية وملونة أكثر بكثير من العلماء المعاصرين، حيث فكر أرسطو بالفصائل المختلفة على أنها حلفاء وأعداء كما يفكر بالممالك البشرية. ولاحظ أرسطو أن الغراب كان صديقاً للبلشون (مالك الحزين) ولكنه عدو للبوم، حيث أن الغراب يأكل بيوض البوم في وضح النار عندما لا يستطيع البوم الرؤية بوضوح بينما يقوم البوم بأكل بيوض الغراب في الليل. أكد علماء الطيور المعاصرون أن الغربان والبوم تهاجم بعضها بعضاً، ولكن الوصف المُبالغ فيه والذي استعمله أرسطو سيُلهم لاحقاً رواة الحكايات مثل إلهامه للعلماء على حد سواء.

أحياناً، كان الرومان يفكّرون في الحيوانات بما فيها الغرابيات بكثير من الوله، وكتب بليني[1] «دعونا نقدم الامتنان الواجب للغربان»(٥) ومضى في حكاية الغراب الذي فقس على سطح معبد مكرس لكاستور وبولو. وطار الى دكان اسكافي حيث رحب صاحب الدكان بالطير على أنه مبعوث من

(١) مؤرخ روماني عاش بين ٢٣-٧٩ م. وهو صاحب كتاب التاريخ الطبيعي.

ضريح روماني تظهر فيه الرغبة في الراحة في الحياة القادمة ممثلة بمشهد ريفي تقليدي يُظهر الغربان وهي تنقر عناقيد العنب.



الآلهة. وخلال حياته بين البشر بدأ الغراب بالتحدث مثلهم وكان يطير كل يوم إلى المنتدى ويحيّي الامبراطور تيبريوس باسمه، ثم يحيِّي قادة جيشه والعامة من الحضور. وأصبح الدكان الذي كان الغراب يعيشُ فيه مشهوراً جداً حتى أنَّ مالك دكان منافس قتل الطائر في غمرة غضبه، فقتل المواطنون الثائرون المالك وأقاموا للغراب جنازة مهيبة حضرها حشد كبير تقدمهم عازف ناي وحمل عبيد اثيوبيون بحزن النعش المغطى على أكتافهم.

نظر شعراء روما بحنين إلى الزمن الماضي عندما كان البشر أنقياء من الطمع وعاشوا في تناغم مع باقي العناصر. ولعل أكثر العبارات شهرة في ملحمة فيرجيل العمل في الأرض Georgics حول هذا الشوق الرومانسي حيث كتب المؤلف بولع عن غراب ينعب متنبئاً بالمطر. وكتب سويتونيوس[١] عن حياة الامبراطور الروماني دوميتيان أن غراباً أقام في أعلى نقطة من تل الكابيتول ولم يكن قادراً على قول عبارة :هذا حسن، فقال :هذا ما سيكون (erit).(٦) وفهم الناس أن معنى هذا هو أن أوقاتاً أفضل ستحل

(١) مؤرخ روماني عاش في أيام الامبراطورية الرومانية.



منحوتة رومانية تظهر ميثراس، «الشمس التي لا تقهر» يضحي بثور كبير ليعيد تجديد العالم بينما الغراب ينظر اليه.

قريباً، وأثبتت النبوءة صحتها، حيث سرعان ما قتل دوميتيان الذي بدأ يزداد فساداً وقسوة وخلفه سلسلة من الحكام الصالحين.

فهم الرومان نداء الغراب على أنه (كراس cras) وهي كلمة لاتينية تعني الغد، وتم تفسيره على أنه تعبير عن الأمل الأبدي. كتب الشاعر الروماني تيبولوس، وهو من الشعراء الغنائيين الأوائل، «قبل الأن كنت سأنهي معاناتي بالموت، ولكني وجدت أن الأمل يبقى شعلة الحياة، ويهمس بأنه في الغد ستتحسن الامور». على الرغم من أن المؤلف لم يقم بذكر الطير بشكل واضح إلا أن النداء (غداً) (cras) بدا أنه يجعل من الغراب تجسيداً للأمل (spes).

ووجد الرومان أن القدرات اللغوية لغراب العقعق أكثر إبهاراً من تلك التي لدى الغربان والغربان السوداء، وكتب بيليني أن بعض طيور العقعق لم تقم بتكرار كلمات محبَّبة فقط بل أحبَّتها وتأملت باستمرار في معانيها. وإذا فشل غراب العقعق في استيعاب مثل هذه الكلمة فقد يموت من خيبة الأمل. وإذا كان الغراب الأسود محارباً فإنَّ غراب العقعق علاَّمة ملتزم .



منحوتة رومانية تظهر ميثراس ينظر وراءه نحو غراب بينما يقوم بالتحضير للتضحية بثور لتجديد العالم. هوذا التمثيل ليس معتاداً فهو يظهر غرابين بدلاً من الغراب الواحد المعتاد، ربما للإيحاء بالخصوبة.

وبينما امتص الرومان حضارات الشعوب التي قهروها ازداد تنوع وتعقيد التراث الشعبي الخاص بالحيوانات مثل الغربان. وقصّ بيليني حكاية رجل اسمه كراتس مونوسيوس ذهب الى الغابات والغربان تجثم على كتفيه وقمة خوذته، وهي الطيور التي كانت تستخدم في الصيد (كالصقور). وذكر الروماني المثقف أنَّ روحَ رجلٍ يدعى أريستياس شوهدتْ تطير خارجة من فمه على هيئة غراب أثناء نومه.

كانت الغربان في الديانة الفارسية القديمة تعتبر تجسيداً لإله المعارك المظفرة، فيريثراغانا، وكان ريش الغربان تمائم شائعة. وأصبحت أخوية «الغربان» أول الشعائر الاستهلالية السبعة في ديانة ميثراس، التي نشأت أصلاً في بلاد فارس، وكانت شائعة بشكل خاص بين الجنود وأصبحت المنافس الرئيسي للمسيحية في القرون الأخيرة للامبراطورية الرومانية. وكان ميثراس يعرف باسم (الشمس التي لا تقهر) وكان يرتبط بأبولو على نطاق

واسع. فقد كان ميثراس يشترك مع الإله الشمسي الإغريقي-الروماني في صلته بالغربان. وفي الطقوس السرية، كان الناس يتنكرون بهيئة الغربان والاسود ويرقصون حول مذبح تحت الارض.

وكان على ميثراس أن يذبح ثوراً ضخماً عند نهاية العالم، حتى يقوم بتجديد الأرض. ويقوم كلب بلعق دم الثور، في حين يقوم ثعبان بالامساك بخصيات الثور ويبقى الغراب الذي توضع بين ميثراس وبين الشمس متفرجاً. وستؤدي التضحية بالثور إلى تغذية الحياة وفي بعض الأحيان يتبرعم الاقمح من دم الثور. والغراب الذي كان فيما مضى محتقراً لسرقته من الهياكل عاش أكثر من الألهة القدماء وأصبح مرافقاً للرب.

هوامش

١ بولارد، جون الطيور في الحياة والأساطير الاغريقية (نيويورك ١٩٧٧)، الصفحة ١٧٩.

٢ بابريوس. فايدروس، ترجمه بن إيدوين بيري (كامبردج رسالة ماجستير ١٩٦٥) الصفحة ٤٤٦.

٣ ايسوب، الخرافات الكاملة، ترجمها ودققها أوليفيا وروبرت تيمبل (نيويورك ١٩٩٨) الصفحة ٣٧

٤ كوميديا الحمير، لبلوتو، ترجمة بول نيكسون (كامبردج، رسالة ماجستير ١٩٦١(الكتاب الاول، الاسطر ٢٥٩-٦١).

٥ بليني، التاريخ الطبيعي، ترجمة هـ. راكهام و.هـ.. وآخرين (كامبردج، رسالة ماجستير، ١٩٥٣)، المجلد العاشر، الكتاب العاشر، الفصل التاسع، الجزء ١٢١.

٦ سوستونيوس، ترجمة ج.سي. رولف (كامبردج، رسالة ماجيستيرظن ١٩٩٧) الكتاب الثالث والعشرون، القسم الثاني.

٧ كاتولوس/تيولوس/ بيرفيجيليوم فينيريس، تدقيق ج.ب جوولد، ترجمة جي. بي. بوستغايت (كامبريدج، رسالة ماجستير، ١٩٦٢) الكتاب الثاني، الاغنية السادسة، الأسطر ١٩-٢٠.

3- العصور الوسطى وعصر النهضة في أوروبا

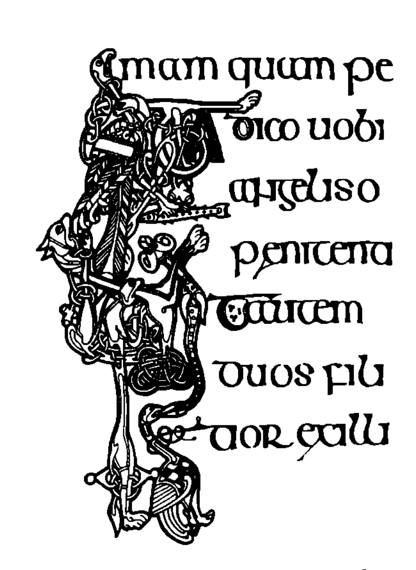
وقال: وإلا ستشنق حتماً، يا جيمس جونز، وبعد ذلك
ستنقر الغربان عظامك عالياً فوق المشنقة
كاتب مجهول، «جيمس جونز في خليج بوتاني»

ذكر المؤرخ الروماني ليفي[١]، والذي ينحدر من سلالة السلت[٢]، أن رجلاً غالياً[٣] ضخماً دخل الى معسكر الجيش الروماني وتحدى أي رجل ليلاقيه في معركة منفردة. وقد هال حجم الغريب وجسارته أغلب الجنود، ولكن شاباً من التريبون[٤] يدعى ماركوس فاليروس قبل التحدي.

وبينما كان القتال على وشك ان يبدأ، حط غراب على خوذة فاليروس ونظر نحو الغالّي. وعندما أصبح المتنافسان داخل مدى المبارزة، نهض الغراب وهاجم الغالي وضربه بجناحيه ومزقه بمخالبه وأثار في نفسه الفزع. وسرعان ما قُتل المتحدي وطار الغراب نحو الشرق. وانتعش الرومانيون وفازوا بالمعركة الناشبة حيث انهم كانوا مقتنعين أن آلهة ما قد أرسلت الطائر. وحمل التريبون اسم فاليروس كورفوس أي «فاليروس الغراب».

من هي الآلهة التي أرسلت الغراب؟ كما رأينا من قبل، ارتبط الغراب في بعض الاحيان بجونو ومينرفا وابولو ولكن لم يكن له علاقة بالمعارك. إن ارسال طائر كهذا إلى معركة يبدو من صفات العديد من آلهة السلت، وخاصة إلهتي المعارك الايرلندية، بادبا وموريغان. وقد تم العثور في مدينة سيوم في رومانيا على خوذة تعود للسلت من القرن الثالث قبل الميلاد

(١) تيتوس ليفيوس، (٥٩ ق.م. ١٧ م)، مؤرخ روماني كتب تاريخ روما العظيمة في ١٤٢ مجلداً منذ إنشائها في عام ٧٥٣ ق.م.
(٢) أقوام عاشت في أوروبا قديماً
(٣) من قبيلة الغال سكان فرنسا الأصليين.
(٤) التريبون في التاريخ الروماني هم المدافعون عن الحقوق العامة.



هذه الصورة مأخوذة من كتاب The Book of Kellsوتظهر الأحرف التزيينية طيوراً وحيوانات ملتفة على بعضها، وقد نُفذت في ايرلندا في أواخر القرن الثامن أو اوائل القرن التاسع الميلادي. لكن لا يمكن تحديد المخلوقات الظاهرة فيها على الرغم من بعضاً من هذه الطيور قد تكون غرباناً.

وفي أعلاها صورة غراب بجناحين معلقين على الخوذة. هذه الاجنحة كانت ترفرف لدى دخول المحارب الى المعركة، حتى أنّ المرء ليحسبهما طيراً حقيقياً مثل ذلك الطير على خوذة التريبون الروماني. كما قد تكون قصة فاليروس كورفوس حكاية سلتية تبناها الرومان فيما بعد، فقد كان الجيش الروماني يتألف بشكل كبير من الأجانب الذين قد يُمنحون حق المواطنة في النهاية لقاء خدماتهم، ومن المحتمل جداً أن يكون فاليروس نفسه واحدا من السلت.

أخذ الرومانيون ما هو أكثر من الجنود من الشعوب التي حكموها، وعلى الرغم من أنهم أنتجوا كماً هائلاً من الأدب إلا أنَّ الثقافة الرومانية عانت من فراغ روحي، مما اضطرّ الإمبراطورية الرومانية إلى أن تتوسع باستمرار ولكنه أيضاً دفع الرومان إلى تبني الممارسات الدينية للمحكومين كما لو أنها تخصهم. بمن فيهم المصريون واليونانيون والفرس والسلت. حتى أنهم صوروا إلهة السلت إيبونا[1] على النقود الرومانية وهي تمتطي صهوة حصان بشكل

(١) من ألهة السلت وتمثل انتصار الخير على الشر.



هذه الصورة مأخوذة من كتاب The Book of Kellsوتظهر الأحرف التزيينية طيوراً متشابكة، وبالرغم من أن الأجساد المتطاولة لهذه المخلوقات توحي بأنها إوزات إلا أن رؤوسها تشبه رؤوس الغربان.

جانبي. كان الرومانيون يعتبرون عادةً السلت والألمان من البرابرة، مثلهم في ذلك مثل اليونانيين، ولكن الرومان أيضاً كانوا معجبين بحيوية أولئك الأقوام البدائيين.

ربما لم ينتج سكان أوروبا الشمالية ثقافة أدبية مثل تلك التي لدى اليونانيين والرومان، ولكن فنونهم التصويرية تعرض تصميمات منحنية

ترتكز على أشكال الحيوانات والنباتات وتتمتع بحيوية تشبع الحواس إلى درجة لم تصل اليها الحضارات الأكثر عقلانية من حضارات المتوسط إلا فيما ندر. وبالنسبة للرومان، تعتبر الحيوانات غالباً رموزاً أو علامات، ولكن لها في الثقافات السلتية. الألمانية استقلالية واقعية أكثر. فقد تكون حكيمة أو قوية بطريقتها الخاصة وليست ببساطة تعاويذ للآلهة المجسمة.

لم يُسجل الأدب الذي وصل الينا من أقوام السلت والشمال إلا بعد انقضاء فترة لا بأس بها من العصور الوسطى، ولكنه مليء بقصص وآلهة تعود إلى العصور القديمة. وهذا الأدب، على عكس أدب اليونانيين والرومان، يبدي اهتماماً ضئيلاً بالمجردات، ولكنه معقد جداً من الناحية العاطفية. وهو يشابه أغلب الآداب الجدية من العالم القديم في كونه مأساوياً (تراجيدياً). ومع ذلك، نجد أن رؤيته المأساوية (التراجيدية) غالباً ما تُمزج بالفكاهة، وخاصة في الأدب الايرلندي. ويخلط الأدب القديم لشمال أوروبا



تصوير لغراب في كتاب سفر المزامير Alphonso Psalterمن القرن الثالث عشر. وعلى الرغم من جمال رسمها إلا أن الطيور في هذه السفر تبدو ثابتة بشكل غريب، وربما يعود ذلك إلى أن الرسام سعى لتمثيل المشاهد من منظور الأبدية.

بين الواقعية الحازمة والسحر المتطرف والمبالغة الساخرة بطريقة تشابه نوعاً ما الأغنيات التي يغنيها الايرلنديون في العصور الأحدث عندما يحتسون الشراب.

تُصنف الغربان والفيلة بين الحيوانات القليلة التي غالباً ما يبدو أن لديها حسّاً بالفكاهة مما يتعارض مع ريشها الداكن. ومن الطبيعي أن تكون الغربان من أكثر الحيوانات تعقيداً وإثارة للاهتمام في هذه الحكايات النابضة بالحيوية. ففي القصص الملحمية للفايكنغ والسلت والساكسون، تكمن الغربان والغربان السوداء تقريباً بشكل دائم في مكان ما في الخلفية وتُسمع نداءاتها المشؤومة في اللحظات المهمة.

ارتبط الغراب أو الغراب الأسود بشكل خاص بأودين، الإله الأسمى لدى الفايكنغ، والذي كان يُدعى في بعض الأحيان بلقب (ملك الغربان)، وكان له غرابان يجثمان على كتفيه ويُدعيان (هوغين) أي الفكر و(مونين) أي الذاكرة. في قصيدة حكايات جريمنير «Grimnir»s Sayings من الشعر الشمالي إيدا Edda، يقوم أودين بزيارة ملك القوط جيرود، متنكراً بقناع أزرق، وذلك ليختبر ما عُرف عن الملك من استهزاء بقوانين الضيافة. فاعتقل الملك جيرود أودين وعلّقه على شجرة بين نارين، وبينما كان يُعذب، أخبر أودين عن الجنة والأرض، وقال:

هوغين ومونين يطيران كل يوم
فوق العالم الواسع؛
وأخشى ألا يعود هوغين
ولكنني أقلق أكثر على مونين(١)

هذا هو الخوف على العالم من أن ينحدر نحو الفوضى، ومن ضياع الفكر والذاكرة، نعمتا الحضارة. يوحي تعذيب أودين بشعائر الشامان[١]،

(١) الوسيط بين البشر وعالم الأرواح.

حيث يُمنح المُعذَّب حق الوصول إلى المعرفة السرية. وقد يكون أودين، إله السحر والحرب، شاماناً في الأصل، في حين أن الغربان والذئاب التي ترافقه قد تكون مساعديه من الحيوانات.

أصبحت الغربان طيوراً مشؤومة لدى الفايكنغ، ربما أكثر من اليونانيين والرومان، حيث أن نعيب غراب أمام منزل قد يتنبأ بموت رب المنزل، وأصبح الغراب ذو الجناحين المبسوطين مقياساً لقادة الفايكنغ الذاهبين إلى المعركة. وتقص ملحمة فلوكي Saga of Flokki من القرون الوسطى كيف اكتشف أحد البحارة ايسلندا عبر اطلاق غراب والابحار خلفه.

كان للغربان والغربان السوداء أهمية مماثلة لدى السلت الاوائل. كان لوغ Lugh، ويعني اسمه (الشخص المُشرق)، هو إله النور عند السلت. ويرتبط الاسم بالكلمة الغولية لوغوس «lugos» التي تعني الغراب الأسود، مما يوحي أنه في إحدى المراحل، قد يكون لوغ ملك الغربان، شأنه شأن أودين، وهو أيضاً يتشارك مع أودين الصلة بالمعارك والشعوذة. وفي الكتاب الايرلندي (كتاب الغزوات) Book of Invasions تقوم الغربان بتحذير لوغ باقتراب أعدائه الفورميان Formians. والاسم الأصلي لمدينة ليون هو لوغدينوم Lugdunum ويعني تل الغربان، وسميت هكذا لأن تحليق الغربان هو ما أرشد المستوطنين الأصليين الى المكان الذي بنوها فيه.

ولكن وبشكل عام، صوّر السلت الغربان والغربان السوداء على أنها مخلوقات من العالم السفلي أكثر منها مخلوقات تطير تحت الشمس وقد تم العثور على الكثير من الغربان التي دفنها السلت في حفرٍ في العصر الحديدي، وأحدها في انكلترا في وينكليبوري، ويلشاير، وكان موضوعاً بشكل متعمد في قاع الحفرة وأجنحته منبسطة، مما يوحي أنه قد يكون جزءاً من شعائر أضحية. ترتبط الغرابيات غالباً، كما ذُكر من قبل، بإلهتي المعارك بادبا وموريغان ولدى كلتيهما القدرة على اتخاذ أشكال ثلاثية وظهورهما قبل المعركة أو خلالها عادة ما يتنبأ بالهلاك. ففي الملحمة الايرلندية القديمة موت كو كولاين The Death of Cu Culainn، يصادف البطل الاسطوري



غربان وطيور أخرى في Cocharelli Tractatus de vitiis septem (أواخر القرن الرابع عشر). غالباً ما كانت العصور الوسطى توضع في قالب عوالم أخرى، ولكن من الواضح أن الفنان الذي رسم هذه الطيور كان يستمتع كثيراً بمراقبة الطبيعة.



منحوتة خشبية انكليزية من العصور الوسطى تظهر أساطير ايسوب Fables of Aesop وتعرض مباراة في الإرادة بين حيوانين ذكيين بالفطرة، الثعلب والغراب.

كو كولاين في طريقه إلى المعركة ثلاث عرافات بشكل غربان، يغلب أن يكن تجلياً لبادبا، ويقمن بخداعه لانتهاك إحدى المحظورات بأكل لحم كلب. وسرعان ما يُصاب كو كولاين بجرح مميت ويقوم بتقييد نفسه الى شجرة كي يموت واقفاً على قدميه. راقبه أعداؤه من بعيد وهم خائفون من الاقتراب منه حتى حطّت بادبا في هيئة غراب أو غراب أسود، على كتفه.

تكاد حكايات ويلز الواردة في كتاب مابينوجيون Mabinogion أن تكون أقرب بقليل الى عالم الفروسية. ففي قصة حلم رونابوي The Dream of Rhonabwy» يتنافس الزعيمان آرثر وأوين في لعبة تشبه كثيراً لعبة الشطرنج بينما يقتتل رجالهما في معركة. وكان فرسان آرثر يرافقونه في حين أن غرباناً سحرية رافقت اوين وكانوا قادرين على التعافي من الجروح وحتى النهوض من الموت. كانت الغربان على وشك هزيمة رجال آرثر، عندما قام الحاكمان بإنهاء مسابقتهما وإعلان السلام. وفي قصة برانوين ابنة لاير «Branwen، Daughter of Llˆyr» كان بطل القصة هو بران العملاق والذي يعني اسمه في لغة أهل ويلز الغراب. تزوجت اخته برانوين، والتي يعني اسمها (الغراب الأبيض) من زعيم ايرلندي أساء اليها. فأرسلت طائر زرزور عبر البحر بأنباء سوء المعاملة الذي تتعرض له، وسرعان ما غزت جيوش بران ايرلندا. وبعد معركة رهيبة تمكن بران ورجاله من قتل جميع

الأشخاص في ايرلندا باستثناء خمس نساء حوامل لجأن الى كهف.. أصيب بران نفسه بجرح قاتل في حين نجا ستة فقط من تابعيه.

وبناء على أمر من العملاق، قام رجاله بقطع رأسه الذي استمر بالكلام، وحمل المحاربون الرأس وعادوا الى لندن. ثم قاموا أخيراً بدفنه في برج لندن، ووفقاً للأسطورة، فإن روح بران هي الغربان التي تعيش في البرج. وطالما أن الغربان لم تختف من هناك، فلا يمكن غزو بريطانيا بنجاح.

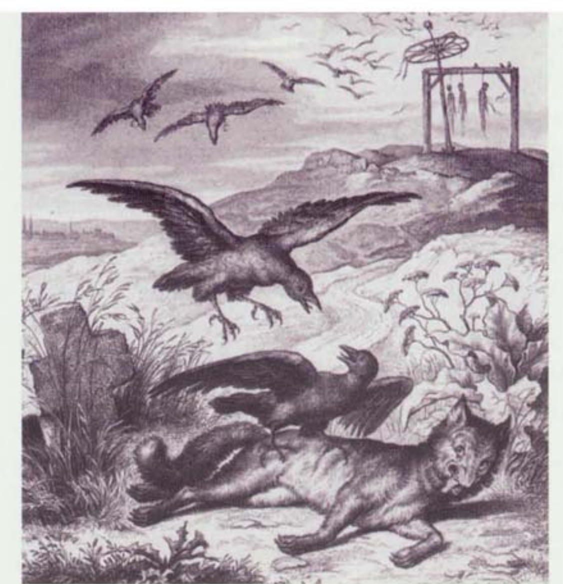
لم يعد الناس ينظرون إلى الحيوانات على أنها نبوءات مثلما كانوا في العالم القديم، وإنما ازداد اعتبارهم لها مصدراً للعبر الاخلاقية أو أهداف دراسة جمالية. وفي مشهد مشهور من قصة بريدور، ابن افراوغ Peredur، Son of Efrawg من كتاب مابينوجيون أيضاً، يلتقي البطل بريدور بغراب يلتهم بطة في الثلج، وبدأ يحلم بمحبوبته، فقد ذكّره بياض الثلج بلون بشرتها في حين أن لون الغراب الأسود يشبه لون شعرها، وكانت قطرتان من الدم تشبهان احمرار خديها. وقد وردت هذه الصورة مرات عديدة وباختلافات كثيرة في الأدب الشعبي، مثلاً: في بارزيفال Parzifal الشعر الفروسي للشاعر وولفرام فون اسكينباخ[١] وفي الحكاية الخرافية «بياض الثلج الصغيرة» «Little Snow White» للأخوين جريم. يلخص هذ المشهد الجمال والقسوة اللذين اعتدنا على ربطهما بالعصور الوسطى.

قد تكون العصور الوسطى أقرب الينا زمنياً من العالم اليوناني. الروماني، ولكنها الأكثر غموضاً من العديد من النواحي. فالأشكال المرسومة على المزهريات الإغريقية الظاهرة واللوحات الجدارية الرومانية تركز على نشاطاتهم، على نقيض الأشكال في اللوحات التي تعود للعصور الوسطى والتي عادة ما تحدق بنا، نحن المشاهدين، مباشرة بأعين صارمة وكئيبة بعض الشيء.

وكثيراً ما قام الفنانون من العصور الوسطى وعصر النهضة برسمٍ مشاهد متعددة من القصة في لوحة واحدة ليذكرونا بأنهم يقدمون جزءاً

---

(١) فارس وشاعر ألماني عاش بين ١١٧٠ ١٢٢٠. ويعتبر من أعظم الشعراء الملحمين في عصره.



يظهر الثعلب، بطل القصة، في هذا المشهد الذي رسمه ويلهيلم كاولباخ عن خرافات راينارد، وهو يُقاد إلى الموت في الوقت الذي تصل فيه الغربان لتنقر جثته. ويبدو المزيد من الغربان وهي تتجمع في الخلفية إلى جوار المشانق.

من الحالة السرمدية. وقد ظهرت الحيوانات، في الكتب التي تعود للعصور الوسطى، كتعبيرات وكنايات خلقها بالأصل الاله القادر على كل شيء ليوضح للبشر العبر الاخلاقية. وهكذا قد يرمز الظبي والفيل إلى المسيح، في حين أن الثعبان والخنزير يمكن أن يمثلا الشيطان. ولكن في الغالب كان كتّاب العصور الوسطى يبتهجون برواية الحكايات عن الحيوانات. وفي بعض الأحيان وأثناء تحول أوروبا إلى المسيحية أعطى موت الآلهة الوثنية المجسمة فرصة أكبر لإعادة نشوء التراث القديم. وكان الأدب الشعبي المسيحي لأوروبا في العصور الوسطى غالباً أقل تركيزاً على الانسان من الديانات اليونانية والرومانية. وبشكل عام، تظهر الحيوانات ببساطة في أدب القرون الوسطى على أنها كائنات مجسّمة مبعوثة، كما كانت تبدو لدى اليونانيين والرومان.

ولكنها هنا مُشارك فعّال في حكايات الرجال والنساء. وقد قام أهل

العصور الوسطى بتكييف الأدب الشعبي للعصور السابقة مع المسيحية، عبر إضافة حواشٍ أخلاقية. ومع ذلك، انتشرت الغرابيات على أنها خيّرة وشريرة معاً، حتى أنها مثل يهوه في العهد القديم تمثل الخير والشر في آن واحد. وقد يقوم الكتّاب بإطراء الغربان بشدة في إحدى الفقرات ثم يلعنوها بقسوة في الفقرة التالية. ويقول هوغ في كتاب Fouilloys Aviarium والذي كتب بين أول القرن الثاني عشر وحتى منتصفه ولكن نُشرِ بعد حوالي ٣٠٠ عام على ذلك: (يعتبر الغراب في بعض الاحيان رسولاً، وفي أحيان أخرى مذنباً، ويُنظر إليه على أنه الشيطان في أحيان أخرى)(٢). وربما يعود ذلك إلى أنّ الغربان توحي بمزيج من الخير والشر، وقد ساد لدى الفلاحين الفرنسيين قول مفاده أن الرهبان الفاسدين يصبحون غرباناً سوداء في حين تتحول الراهبات السيئات إلى غربان.

ارتبطت الغربان والغربان السوداء بشدة بالموت. فكل محارب كان يعرف أن مصيره المحتمل هو أن تأكله الغربان، على الأقل حتى وقت قريب جداً تاريخياً. وكان هذا مزعجاً جداً وخاصة في الثقافات التي تعتقد أن قدر الأموات في العالم الآخر يعتمد ولو جزئياً على الدفن اللائق. وقد تمت إضافة تفاصيل مأتمية وفي أحيان كثيرة خيالية إلى الغربان التي تبحث في القمامة. وكان الكتّاب في العصور الوسطى مثل أيسيدور الإشبيلي[١] وهيو الفويلوي[٢] قد قالا إن الغراب سينقر عيني ضحيته أولاً ثم يقوم باستخراج الدماغ من خلال الفتحات. وأورد كونراد فون ميغينبيرغ[٣] في كتابه المشهور عن التاريخ الطبيعي والمنشور في عام ١٣٤٩، أن الغربان تنقر عيون البغال والثيران في المزرعة عمداً. وعندما يرى الفلاحون أن حيواناتهم الداجنة لم تعد ذات فائدة، يقتلونها ويسلخون جلدها وبهذه الطريقة تحصل الغربان الذكية على فرصة لالتهام جزء من الذبيحة.

(١) مطران اسباني من سافيل روّج للتعليم وشجّع على التعلم، عاش بين ٥٦٠-٦٣٦ م.

(٢) رجل دين مسيحي فرنسي عاش بين ١٠٩٦. ١١١١ م. عُرف بكتاباته الروحية.

(٣) علامة وكاتب ألماني متعدد الجوانب عاش بين ١٣٠٩. ١٣٧٤ م.

تثير فكرة أن يؤكل المرء من قبل الحيوانات رعباً بدائياً جداً، حيث أن ترك المرء كجثة تلتهمها الغربان يمكن أن يعني بكلمات أخرى، أن هذا الشخص قد تم إبعاده عن المجتمع البشري. وهذا كان مصير المجرمين الذين كانت جثثهم تُترك على المشانق ليكونوا عبرة لغيرهم. وقد ورد هذا بشكل حيّ في القصيدة الملحمية بيولف Beowulf التي نُظمت في وقت ما بين منتصف القرن السابع ونهاية القرن العاشر الميلادي:

وكانت تشبه التعاسة التي يشعر بها رجل عجوز
عاش ليرى جثة ابنه
تتأرجح على المشانق. وبدأ العجوز برثاء
وبكاء صغيره وهو يراقب الغراب
يتأمل بحبور المكان الذي يتدلى منه ...(٣)

غالباً ما تضمنت التحذيرات من حياة الجريمة أن مصير من ينخرط فيها سيكون الالتهام من قبل الغربان والغربان السوداء، حتى أن النطع الذي كان يتم عليه قطع رؤوس المجرمين عرف باسم «حجر الغراب».

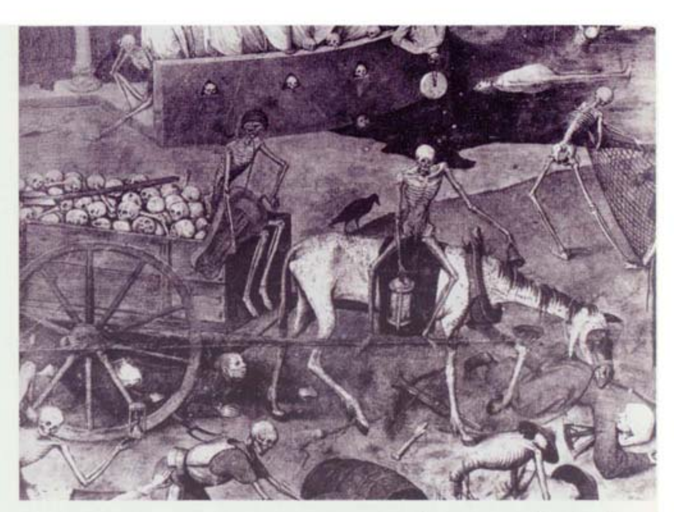
تبدو الغربان في العديد من الأغنيات الشعبية التي يعود بعضها الى العصور الوسطى أو ما قبلها، وهي تبحث عن ميدان معركة وتخطط لالتهام فارس قتيل. وتقول أغنية مجهولة المؤلف باسم الغرابين The Twa Corbies، من المنطقة الحدودية بين انكلترا واسكوتلندا:

بينما كنت أسير وحيداً
سمعت غرابين يتحدثان
قال أحدهما للآخر
أين سنذهب لتناول الطعام اليوم؟
يوجد خلفك خندق معركة
ورأيت هناك فارساً قد قُتل حديثاً
ولا أحد يعلم أنه سقط هناك
وماذا عن صقره وكلبه وزوجته الجميلة



تصوير لغراب ينقر عيني جندي ميت من سفر Apocalypse الرؤيا الانكليزي في أواخر القرن الثالث عشر. أصبح منظر الغربان وهي تجتمع في ميادين المعارك وتلتهم القتلى مألوفاً أكثر فأكثر في أواخر القرون الوسطى بسبب زيادة تواتر الحروب واتساع نطاقها.

كلبه ذهب للصيد
وصقره طار يبحث عن فريسة يأكلها
وزوجته اتخذت لها رجلاً آخر
اذا فنحن نستطيع أن نستمتع بعشائنا
أنت ستجلس على رقبته
وأنا سأنقر عينيه الزرقاوين الجميلتين
وسننتزع شعره الأشقر
ونضعه في عشنا عندما ينقصنا القش
الكثيرون سيتحدثون عنه



لوحة انتصار الموت The Triumph of Death (١٥٦٢) للفنان بيتر بروغيل الأكبر وهي تعرض هياكل عظمية هزيلة تمثل الموت وتقود حصاناً وعربة ممتلئة بالجماجم فوق أجساد رجال ونساء يائسين. لنلاحظ وضع الغراب المألوف على ظهر الحصان.

ولكن لا أحد سيعرف أين ذهب
وعلى عظامه البيضاء عندما تصبح عارية
ستهب الرياح للأبد(٤)

في نسخ أخرى من هذه الأغنية تسهر الزوجة الوفية والكلب على حراسة جثة الفارس وحمايتها من الغربان والغربان السوداء. وفي مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير(الفصل الخامس، المشهد الاول) تراود كاسيوس المتمرد رؤيا عن هزيمته ويقول:

...... الغربان والغربان السوداء والحدأت
تطير فوق رؤوسنا وتنظر إلينا من علٍ
ونحن نموت بيأس، وتبدو ظلالهم
كمظلة مميتة يستلقي تحتها جنودنا، على وشك أن يسلموا أرواحهم.

تردد صدى هذه الكلمات في المقاطع الأخيرة من المسرحية، عندما أعلن اوكتافيان ومارك أنتوني أن بروتوس المهزوم يجب أن يُمنح جنازة لائقة على الأقل.

منذ نهاية العصور الوسطى وحتى العصر الحديث، أصبح تصوير سرب

من الغربان يحوم حول المشانق تقليداً في الفنون التصويرية، ولكن كان هناك استثناء واحد مثير للاهتمام؛ لم يتم أبداً تصوير الغربان وهي مجتمعة حول جسد المسيح المصلوب، وكذلك الأمر بالنسبة للصين اللذين أعدما معه. ولم يتم رسمها أبداً وهي تنقر جثث الشهداء، على الرغم من أن الشهادة كانت تصور بتفاصيل دامية. ولو أن الغربان عُرضت بهذه الصفات، لكان لا بد لهذه الطيور أن توسم بالشيطانية أو تُمجد. وبطبيعة الحال، كانت محترمة في العادة، وهذا أكثر أماناً بكثير لأي نوع من المخلوقات.

في عام ١٥٦٢ أكمل الرسام الفلمنكي بيتر بروغال الأكبر لوحة زيتية بعنوان انتصار الموت The Triumph of Death، واحتوت هذه اللوحة على هيئة هيكل عظمي يحمل ساعة رملية في إحدى يديه وجرساً في اليد الأخرى وهو يمتطي صهوة حصان يجرّ عربة مليئة بالجماجم، في حين يُسحق العديد من الناس الذين ربما أضعفهم الجوع والمرض تحت عجلات العربة المتقدمة. ويظهر أيضاً غراب كبير على ظهر الحصان مباشرة خلف الفارس الهزيل وهو ينظر من الأعلى نحو الأموات والمحتضرين.

إن العديد من الخرافات الأوروبية تجعل من الغربان تجسيداً للموت، فإن طار غراب منفرد ثلاث مرات فوق أحد السطوح أو حطّ عليه، فهذه علامة أن الشخص الذي في الداخل سيموت قريباً. وفي يوركشاير الشرقية في انكلترا، يقول الناس إنه إذا حط غراب في مدفن الكنيسة فأحدهم سيُدفن هناك قبل مرور سنة على ذلك.

و بشكل خاص، تعتبر الغربان السوداء نذير شؤم؛ فإن نعق غراب بجانب منزل شخص مريض، فهذا يعني أن أجله لم يعد بعيداً. وتحكي إحدى المخطوطات من أواخر العصور الوسطى، وهي الآن في مكتبة بولدليان في اوكسفورد، كيف عانى سكان لندن من الوباء لثلاث سنوات في حوالي عام ١٤٧٤ عندما:

... هناك في لندن وعلى صليب شارينغ بنى غراب عشّه؛
حيث لم يرَ أي عش هناك من قبل. وبعد ذلك

في صورة للفنان ألبرت دورير الأصغر لسيباستيان برانت، سفينة الحمقى The Ship of Fools (١٤٠٠) يشعر أحد الحمقى بالافتتان بنداء الغراب cras، cras (غداً، غداً) الذي يقنعه بالمماطلة.



أتى الطاعون وقتل الكثيرين، واستمر لثلاث سنوات؛
ومات الناس بأعداد كبيرة في كل مكان، رجالاً
ونساءً وأطفالاً (٥).

وهناك إشارة أخرى للخرافات التي تقول إن الغربان يمكن أن تتنبأ بالموت في مسرحية شكسبير عطيل، مرسى البندقية (الفصل الرابع، المشهد الأول)، عندما يقول البطل:

أتذكر
عندما طار الغراب فوق المنزل الموبوء
ينذر الجميع ....

وفي مسرحية شكسبير، ماكبث (الفصل الأول، المشهد الخامس)، تلاحظ السيدة ماكبث وهي تخطط لقتل الملك دانكن:

صوت الغراب نفسه أجش
وهو ينعق عند دخول دانكن
إلى داخل أسواري....

ولكن علينا أن نتذكر أنه وعلى الرغم من أن الغراب يمكن أن يكون رسول الهلاك، إلا أنه من النادر أن يكون سبب سوء الحظ. فقد كان الموت



لوحة من العصور الوسطى عن كتاب مدينة السيدات The Book of the City of Ladies (١٤٠٥) للكاتب كريستيان دو بيسان. وهي تعرض العرافة اليونانية أمالثيا التي قادت إينياس في رحلته إلى العالم السفلي. وكانت قد تلقت من أبولو موهبة التنبؤ وفي هذه اللوحة تنظر نحو طائرين متنبأين غراب أسود وغراب ذو قلنسوة.

مألوفاً لدى أهل العصور الوسطى وعصر النهضة أكثر بكثير مما هو للناس اليوم. كان متوسط العمر المتوقع أدنى، بسبب قلة الحماية ضد المجاعات والامراض بالمقارنة مع اليوم. وكان سكان أوروبا بمجملهم تقريبا ريفيين، ونشأ الناس وهم يرون الدجاج والخنازير تُذبح بغرض أكلها. وبالنسبة إلى الذين يتوقعون أو على الأقل يأملون، بالبركة الأبدية لم يكن الموت شيئاً سيئاً بالضرورة، حيث كان يفرض نفسه في أوج حياة المرء بكل فخامة وهيبة. والأكثر من ذلك، أن الموت لم يكن يعتبر أمراً خاصاً، بل إنه شأنٌ عام. وقد رغب الناس في معرفة ساعة موتهم حتى يتمكنوا من التحضير لها. وكانوا يتمنون الموت في أسرتهم تُحيط بهم عائلاتهم وأصدقاؤهم وربما أعداؤهم القدامى الذين سامحوا بعضهم.

لا أحد كان يتمنى أن يأخذه الموت فجأة وبالتالي يُحرم من فرصة التصالح مع الرب والعالم. وقد يكون الإعلان الذي يقوم به الغراب عن اقتراب الموت مخيفاً ولكنه في أحيان كثيرة يُعتبر نعمة.

وكما رأينا من قبل، فقد فهم الرومانيون نداء الغربان على أنه كلمة (كراس

يمنح غطاء الدرع هذا رؤية متفائلة لنداء الغراب مضرب الأمثال (كراس cras) أو الغد. ويقول شعار جايمس إتكين المرسوم عليه: (سعادة اليوم ستصبح ثلاثة أضعاف غداً).



لم يكن الغراب حيواناً ممّجداً في الأيقونات المسيحية ولكن أيقونة القديس انتوني أبوت والقديس بول الراهب مع الغراب (١٦٣٥) والتي رسمها دييغو فالسكويز تُظهر أحد الغربان بوضوح وهو يهبط مباشرة من الجنة مثل الروح القدس.



cras) والتي تعني الغد، وأصبح هذا النداء يُفهم على أنه تذكيربالموت قرب نهاية العصور الوسطى عندما اجتاحت الاوبئة الخبيئة والحروب الضارية أوروبا. في الوقت نفسه، كان هذا النداء رمزاً للمماطلة وغالباً ما يكون المقصود هو الشخص الذي يؤجل برضاه التصالح مع الرب، وهو لا يعي أنه يمكن أن

يموت في أية لحظة. ومع انتعاش المعرفة الوثنية في عصر النهضة أصبح الغراب، بحسب الأسطورة اليونانية التي كان هزيود أول من ذكرها، رمزاً للفتاة باندورا والتي قامت بفتح صندوق يحتوي شرور العالم جميعها.

وعندما لاحظت ما حدث، أغلقت غطاء الصندوق ولكن الأمل وحده بقي في القاع. وفي الوقت الذي بدأ فيه التشاؤم المتطرف في أواخر العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة بإفساح الطريق أمام هدف التطور، وتغيرت نظرة الناس نحو الفتاة باندورا فأصبحت رمزاً للخطأ البشري وبشكل أقل رمزاً للذنب. وبدا صدى نداء الغراب (كراس cras) أو (الغد) أكثر تفاؤلاً، ورسم الفنانون في بعض الأحيان الغراب على الصندوق أو على كتف باندورا.

لا يزال ارتباط الغربان بالفناء يرافقنا في المصطلح (أقدام الغراب) والتي تعني خطوط الشيخوخة حول العينين. ولعل هذا المصطلح يعود إلى استخدام أقدام الغربان في التعاويذ السحرية. وينعكس ارتباط الغربان بالنبوءات في المصطلح (عش الغراب) والذي يعني برج المراقبة قرب قمة سارية السفينة. ويعود المصطلح جزئياً إلى عادة الغراب بناء عشه قرب قمة الشجرة، وعلى اعتبار أن البحار المناوب في عش الغرابٍ يسعى لرؤية الأرض أو السفن البعيدة، فهو يشبه المستبصر (الغراب) قليلاً.

وتتردد أصداء القصة الانجيلية عن إليخيا[1] في العديد من أساطير القرون الوسطى، من خلال جعل الغربان مبعوثة للرب. فمثلاً، حدّث جاكوب دو فوراغين في الاسطورة الذهبية The Golden Legend كيف قام القديس بول الناسك مرة باللجوء إلى كهف في غابة ليهرب من الامبراطور ديسيوس، وفي كل يوم كان الغراب يأتي إليه بنصف رغيف من الخبز، وفي إحدى المرات قامٍ القديس أنتوني بزيارة القديس بول فأحضر الغراب رغيفاً كاملاً.

وغالباً ما كان الغراب يُرسم مع القديس فينسينت. ويُحدثنا جاكوب دو فوراغين كيف أمر الامبراطور داسان بترك جثة القديس فينسيت الشهيد في العراء لتأكلها الحيوانات. فظهرت في البداية مجموعة من الملائكة حول

(١) من أنبياء اليهود في العهد القديم.





الغراب الأعصم وهو نوع من الغرابيات يشبه الغراب الحقيقي وغالباً ما يعتبران بالخطأ نوعاً واحداً. ويحسب بعض الأساطير من ويلز فإن الملك آرثر لا يزال يعيش في هيئة غراب أعصم.

الجثة حتى لايقترب منها أي وحش أو طير. ثم هبط غراب وهاجم الطيور الأخرى، على الرغم من أن بعضها كان أكبر منه حجماً، ودفعهم بعيداً. واقترب ذئب من الجثة لكن الغراب طارد ذلك الحيوان بعيداً أيضاً وهو ينعب وينقر. وأخيراً، استدار الغراب نحو الجثة وحدّق فيها بتعجب. في إمكاننا أن نفسر هذا الغراب الغامض على أنه رمز للمسيح على الرغم من أنه يبدو وثنياً أكثر منه مسيحياً.

كان لدى الناس في الإسلام نظرة أكثر سلبية نحو الغربان، فإحدى الأساطير المشهورة تقول إنه في إحدى المناسبات كان محمد (عليه الصلاة والسلام) مختبئاً في كهف ليهرب من أعدائه، عندما لمحه غراب، وكان في حينها طائراً أبيض، وصرخ الغراب: (غار، غار!) والتي تعني (كهف، كهف!) في محاولة منه لخيانة النبي.

وعلى أية حال لم يتمكن الرجال المسلحون من فهم ما قاله الغراب ومرّوا بمحاذاة مدخل الكهف. وعندما غادر محمد (عليه الصلاة والسلام) ملجأه، حوّل الغراب الى اللون الأسود ولعنه بقوله إنَّ على الغراب منذ ذلك اليوم ان يكرر نداء الخيانة.

وكتب العلامة العربي العراقي حمدالله المصطفى القزويني في القرن

الثالث عشر في بحثه حول الحيوانات أن الغراب كان واحداً من الحيوانات الخمسة الخسيسة، والأخرى هي، الكلب المجنون والثعبان والجرذ والحداة(٦). من المحظور على المسلمين صيد أو قتل الحيوانات خلال رحلة الحج إلى مكة، ولكن هناك استثناء لصيد هذه الحيوانات والتي كانت تعتبر مؤذية جداً. وكان المؤمنون ملزمين بالقضاء على هذه الطيور الضارة في أي ظروف. وعلى الرغم من ذلك فقد اقترح القزويني العديد من الحلي والأدوية التي يمكن صناعتها من أجسام الغرابيات حتى أن القارئ ليتساءل هل كانت هذه الطيور تُقتل فعلاً بداعي الواجب. وربما كانت تُقتل بسبب الأعاجيب التي يمكن تنفيذها من أجسامها. مثلاً: يعمل طحال الغراب كرُقية حب لأي شخص يعلقه على جسده، ومزيج دهن غراب الروك بزيت الزهور الموضوع على خدود إحداهن يجعل السلطان يوافق على تلبية أي طلب. وبالنسبة لأولئك الذين يحبون إثارة المشاكل، فإن مزج عين غراب مع عين بوم وإحراقهما وسط مجموعة من الناس سيؤدي إلى إخراج الضغائن.

وكذلك كان المنظور اليهودي نحو الغراب خلال العصور الوسطى وعصر النهضة سلبياً بشكل عام. وقد طوّر الحاخام المصري الأسطوري إيزاك لوريا نظرية تناسخ الأرواح والتي تشبه تلك الموجودة في العديد من الديانات الآسيوية، والتي تقضي أن الكائن قد يمر بالعديد من الأشكال خلال رحلته نحو الخلاص، وادّعى أتباعه في بعض الأحيان أن من يقسو على الفقراء قد يعود متقمصاً شكل غراب. وأورد موسى الجالنتي الصفدي أن الحاخام لوريا حدّد في إحدى المرات غرابين على أنهما أرواح الشخصيات الإنجيلية بالاك وبالعام[١].

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه بحسب ادعاءات لوريا فإن غراباً آخر كان تقمصاً لروحٍ جامع ضرائب مكروه. وعلى الرغم من ذلك فإن الغربان كانت مألوفة جداً كجزء من حياة اليهود اليومية أو أي شخص آخر، ليتم اعتبارها على أسس سلبية او إيجابية منتظمة. وفي العصور التي سبقت اختراع

(١) ترد قصتهما في سفر العدد في الكتاب المقدس.

الساعات المحمولة، حيث كان الناس يحددون الوقت بشكل عام بالاعتماد على نداءات وتصرفات الحيوانات، كان اليهود يبدأون يوم السبت عندما تستقر الغربان في أماكنها لقضاء الليل.

وفي بريطانيا، عاش الاحترام الطوطمي للغرابيات أكثر من أي قسم آخر في أوروبا، على الرغم من أنه قد تجرّد من محتواه الأسطوري الأصلي. وذكر بيير بيلون[1] في كتابه «التاريخ الطبيعي للطيور» (والذي نشر لأول مرة في ١٥٥٥) أنه يمنع في انكلترا تحت طائلة غرامة كبيرة إيقاع أي نوع من الأذى بالغربان. وكان السبب الذي قدمه بيلون أنه إذا لم تقم الغربان باستهلاك الجيف فستتحلل اللحوم وتسمم الهواء. ونستطيع أن نقول إنه سبب بيئي ولكنَّ الانكليز فكروا فبه بطريقة عملية جداً. وكانوا واعين بالفطرة للعلاقة بين اللحوم المتحللة والأمراض ولكنهم كانوا يرغبون وقبل كل شيء في تجنب الروائح والمشاهد المؤذية.

وبعد نصف قرن من بيلون، قدم ميغيل دو سيرفانتس الإسباني تفسيراً آخر للحظر الذي فرضه الانكليز على قتل الغربان في روايته الرائعة دون كيشوت Don Quixote de la Mancha حيث قدم البطل تفسيراً مفاده أن الملك البريطاني آرثر تحول إلى غراب وبقي قومه في انتظار عودته، وهم لن يقوموا بقتل غراب خوفاً من أن يكون هو الملك الأسطوري. وأكد كتّاب التراث الشعبي أن هذا الاعتقاد ساد في ويلز وكورنويل على الأقل حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. وفي بعض روايات الاسطورة، تحول الملك إلى غراب أعصم، وتعكس القصة في الغالب التبجيل الدائم للغراب كحيوان طوطمي.

وكان هناك نوع غريب من التطابق بين الأدب الشعبي للعصور الوسطى وعصر النهضة بين رمزية المقدس والمدنس، وفي الكثير من الأحيان قد يرمز الشيء أو المخلوق نفسه إلى كلا الصفتين. وبالتالي، فإن التفاحة هي رمز السقوط عندما وضعت في يد حواء، ولكنها في يد مريم (حواء الجديدة) أصبحت رمزاً

---

(١) عالم طبيعة فرنسي، عاش بين ١٥١٧ - ١٥٦٤ م.

للخلاص. وبطريقة مشابهة، قد يمثل الغراب الدرجة القصوى للخير أو الشر، بالاعتماد على المحتوى الذي يظهر فيه. ففي حضرة القديس فينسينت، كان الغراب مبعوثاً من الرب، ولكنه عندما يرافق مشعوذة يكون رسول الشيطان.

كان ارتباط الغربان بالشعوذة في جزء منه إنكاراً لاستخدامها القديم في الكهانة. فقد شددت الكتب المجازية التي تتحدث عن الحيوانات من العصور الوسطى والتي غالباً ما تبدو لنا خرافية في هذه الأيام، على أنه لا ينبغي اعتبار الغربان نذيراً بالمستقبل. وقال ادوارد توبسل وهو عالم حيوان انكليزي عاش في منتصف القرن السابع عشر (إنه شر خطير أن نعتقد أن الرب يرسل تعليماته للغربان)[7] وأضاف أنه من عمل الأرواح الشريرة استخدام العرافين للغربان كما هو مطبق بين الهنود الحمر. وذكر الأخوان جريم في مجموعتهم من الأساطير الألمانية أن رجلاً وامرأة من لوتيش[1] أعدما في عام ١٦١٠ لتجولهما في هيئة ذئبين، في حين رافقهما ابنهما ذو الاثني عشر عاماً في هيئة غراب. وقالت اسوبل غوودي وهي امرأة اسكوتلندية اعترفت بممارسة الشعوذة في عام ١٦٦٢، إن الغربان كانت الهيئة المفضلة لدى الساحرات عندما يتجولن في الليل.

وعلى أي حال، فإن مرافقي الساحرات كانوا في العادة حيوانات أصغر من الغربان. وحكي ويليام من ماليسبوري عن ساحرة انكليزية في بيركلي واسمها جلوسيستيرشير، أن غراب الزيتون كان رفيقها المفضل، وهو طائر تبدو نداءاته وكأنها تقليد لايقاع الكلام البشري غالباً. في أحد الأيام في عام ١٠٦٥، بدأ الطائر بالثرثرة بشدة أكثر من المعتاد فأوقعت المرأة سكينها من الخوف فقد لاحظت أنها على وشك الموت، ومرضت جداً في ذلك اليوم وسرعان ما حملها الشيطان بعيداً.

استنبط الخيميائيون[2] في عصر النهضة طرقاً معقدة تقتصر على مجموعات معينة لاستخدام القوى الخفيّة للغربان وخاصة منها الغربان

---

(١) مدينة في بلجيكا.

(٢) الكيميائيون القدامى

السوداء. وكتب الانكليزي روبرت فلود في أوائل القرن السابع عشر، ملقباً النفاية السوداء التي تبقى في قعر فرن التقطير بعد التقطير (بالغراب) أو (رأس الغراب) وهي كما اعتقد فلود كانت المادة الأولية التي استخدمت لأنتاج مستحضرات التجميل فيما مضى، وهذا كان من عمل الشيطان، ومع ذلك فقد كان نقطة البداية للارتقاء نحو الرب. وفي الكنايات المعقدة للخيميائئين يمكن تعريف الغراب باستخدام شكل قبر أو شكل الشمس في حالة الكسوف. حيث أن الغراب، باعتباره يأكل الجيف، بما في ذلك جثث البشر يدل على تحوّل الأشياء جميعها في أثناء حركة العالم نحو الكمال ببطء ولكن بصرامة.

هوامش

١ كارولين لارينغتون، مترجم، The Poetic Edda (نيويورك ١٩٩٦)، الصفحة ٥٤.

٢ هوغ الفيلوي، The Medieval Book of Birds: Hugh of Fouilloy,s Aviarium ترجمة ويليام ب. كلارك (بينغهامبتون، نيويورك ١٩٩٢) الصفحات ١٧٤-١٧٥.

٣ سيموس هيني، Beowulf (نيويورك، ٢٠٠٠)، الأسطر ٢٤٤٠-٢٤٤٤.

٤ آرثر كيللر كوش، The Oxford Book of Ballads (أوكسفورد/ ١٩١٠)، الصفحة ٦٧.

٥ ريتشارد موير The English Village، (نيويورك، ١٩٨٠)، الصفحة ١٢٧.

٦ القزويني، حمد الله المصطفى، كتاب نزهة القلوب، قسم علم الحيوان، تحقيق وترجمة ج. ستيفنسن (لندن، ١٩٢٨)، الصفحات. ٢١، ٨١.

٧ توبل، ادوارد The Fowles of Heaven أو History of Birdes، تحقيق: توماس ب. هاريسون. ف. دايفيد هونيغير (أوستن، تكساس، ١٩٧٢) الصفحة ٢٢٩.

4 – آسيا

الحلاق هو الأذكى بين الرجال؛

وابن آوى بين الوحوش؛

والغراب أذكى الطيور؛

والراهب ذو الثوب الأبيض من بين الرهبان

المبادئ الخمسة[1] Panchatantra (ترجمة آرثر و. رايدر)

من النادر جداً أن نعثر على ديانة رئيسية تتمحور إلى حد بعيد حول الغراب، كما في ديانة الأشباح الراقصة للهنود الحمر، ومع ذلك، ترتبط الغرابيات بالنبوءات والحكمة وطول العمر في أغلب مناطق العالم. وربما في الأزمنة القديمة جداً، كانت هناك عبادة للغربان انتشرت عبر العالم، وبقي منها الأن أجزاء من أساطير ومعتقدات شعبية. وقد يكون المركز الجغرافي لمثل هذه العبادة في شمال آسيا الوسطى، ومن هناك يبدو أنها انتشرت إلى الأقوام التي تعيش في أمريكا الشمالية والشعوب القريبة في الشرق، وحتى قبائل السلت والنورمانديين في الغرب، وبشكل أقل قوة إلى عدد كبير من الأقوام الأخرى بدءاً من العبرانيين وانتهاءً بالصينيين. وقد لاحظ الكثيرون من علماء الانسان تشابهاً بين معتقدات الشامان لدى سكان سيبيريا وبين معتقدات سكان أمريكا الأصليين في أقصى الشمال، حيث يُحتفى بالغراب على طول الدائرة القطبية الشمالية[2] وما وراءها على أنه إله الخلق وهو أيضاً مخادع في بعض الأحيان، وبذلك يمثل القداسة والفجور في آن معاً.

لم تكن أساطير التكوين أقدم منتجات التراث الشعبي، ولكنها عادة ما

(١) كانت بالأصل عبارة من مجموعة من قصص الحيوانات من الحضارتين الهندية والبوذية، ويعتقد الباحثون أنها قد كتبت حوالي القرن الثالث قبل الميلاد. النص السنسكريتي الأصلي قد ضاع كلياً وينسب إلى فيشنو سارما، وتوجد روايات كثيرة عن القصص الاصلية مترجمة إلى أكثر من ٥٠ لغة، وتعرف في العربية باسم (كليلة ودمنة)

(٢) أحد خطوط العرض الرئيسية في النصف الشمالي للكرة الأرضية وتبعد ٦٦,٥٦٠٨٣ درجة شمال خط الاستواء.



توضيح لموضوع مألوف في الفن والشعر الياباني، حيث يقع التركيز على هشاشة براعم الخوخ وعمرها القصير بالمقارنة مع الغراب في هذه اللوحة غراب على غصن خوخ في ظل البدر Full Moon with Crow on Plum Branch (في الثمانينات من القرن التاسع عشر) للفنان كاوانابي كيوساي (١٨٣١-١٨٩٨).

تأتي في سياق التحوّل من المجتمع القبلي نحو مجتمع أكثر تحضراً، حيث لا تكون الآلهة التي خلقت العالم هي التي تُعبد فعلاً، وغالباً ما تمثل أساطير التكوين مرحلة عابرة.

فمثلاً، تقوم آلهة التكوين مثل جايا اليونانية وبراهما الهندوسي بعمل حلقة اتصال بين المعتقدات الدينية الحالية مع الماضي الغابر. وقد تكون أساطير التكوين المتعددة بفعل الغراب، والتي نجدها بين أقوام الدائرة الشمالية، بقايا ميثولوجيا ضائعة. وبشكل عام، فإن هذه الأساطير جزئية وليست موّحدة في أي علم كونيات ديني متطور، وهي عبارة عن لحظات من التنوير تشبه قليلاً الظهور المفاجئ لغراب بين الثلوج.

ويقصّ قوم التشوكشي[1] Chuckchee من شمال شرق سيبيريا أنه فيما مضى كان هناك غراب وزوجته يشعران بالملل، وعندما طلبت منه

(١) السكان الأصليون لشبه جزيرة تشوكشي وشواطئ بحر تشوكشي وبحر بيرينغ في منطقة المحيط المتجمد ضمن الاتحاد الروسي.



لوحة يابانية تصّور عائلة من الغربان. ١٨٦٠م) وفيها تبدو الأم وهي تبحث باجتهاد عن الطعام في حين أن الأب ينظر بعصبية إلى الصغار وهي تقوم بمحاولتها الأولى للطيران.

الزوجة أن يخلقَ عالَماً أجاب الزوج انه لا يعرف كيف يفعل ذلك. عندها خلدت إلى النوم وولدت توأماً، طفلين ليس لهما ريش وكانا مستمتعين في البداية بصوت نعيب الغراب وكانا اول بشريين.

وقام الغراب نتيجة شعوره بالتحدي والإلهام من فعلتها، بتكوين الأرض، حيث قضى حاجته ليصنع الجبال والأنهار والوديان، ثم كوّن الحيوانات والنباتات. ويحكي سكان كوكوليك في ايسلندا (الاينويت[١]) في مضيق بيرنيغ[٢] كيف كوّن الغراب أرضهم عبر الغطس في الماء وإحضار الرمال من

(١) السكان الأصليون لمناطق الدائرة القطبية الشمالية.

(٢) المضيق المائي الضيق الذي يفصل ألاسكا عن شرق سيبيريا.

القاع. وأصبحت الحصى التي في الرمال بشراً وعلّم الغراب الناس كيف يصطادون الحيوانات والسمك.

يصبح الغراب الكبير خالقَ العالم وجدَّ القبيلة في حكايات قبيلة كوياك من شبه جزيرة كامشتاكا في سيبيريا، وحيث يكون الرجل- الغراب هو نظيره السيئ، الجشع والمندفع، ولكنه قوي. وفي إحدى الروايات، يتودد الرجل الغراب إلى ينيا أنيوت Yinyé-a-nyéut ابنة الغراب العظيم الكبرى ولكنها تتزوج طائراً صغيراً بدلاً منه، وفجأة، يغرق كل شيء في السواد ويتنبأ شامان بأن الرجل- الغراب قد ابتلع الشمس. فتذهب ينيا أنيوت Yinyé-a-nyéut إلى الرجل- الغراب وتلهيه بكلمات تودد خجولة، ثم تمسك به فجأة وتدغدغ إبطه حتى يضحك الرجل- الغراب وتهرب الشمس.

وتقول أسطورة يابانية أيضاً، إنه كان هناك وحش يستعد لالتهام الشمس، ولمنع ذلك، قام حكام السماء بتكوين الغراب الأول، وفي اللحظة التي كانت فيها الشمس على وشك الاختفاء، طار الغراب مباشرة إلى حلق الوحش وخنقه لينقذ بذلك الفضاء السماوي. واليوم، يحصل الغراب على الحبوب من الحقول كما يشاء جزاءً لتصرفه البطولي ولا يضنّ المزارعون عليه بمكافأته.

قد تكون هناك آثار لألوهية الغراب القديم في العديد من الأساطير حيث تصبح الغربان تجسيداً للآلهة. ويقول اليابانيون مثلاً إنَّ البطل جيمو تينو[1] كان يتجول باحثاً عن مكان ليؤسس فيه مملكته عندما لمح غراباً أرسلته إلهة الشمس أميراتسو[2] وتبعه إلى ياموتو حيث استقر هنلك في عام ٦٦٠ ق.م ليصبح جد جميع أباطرة اليابان.

وتحكي قصة النبّال يي Yi، وهو أحد أشهر الشخصيات في الأساطير الصينية عن العلاقة الحميمة بين الغربان والشمس، حيث عاشت عشر شموس في شجرة التوت السماوية خلف المحيط وهذه الشموس كانت

---

(١) المؤسس الأسطوري لليابان وأول امبراطور يدرج اسمه في قائمة أباطرة اليابان.

(٢) أحد أهم آلهة ديانة الشانتو اليابانية ويعني اسمها (من تضيء السماء).

أطفال تيايانغ ديجون ملك السماء وإكسي- هي إلهة الشمس، وفي كل يوم كان أحد الأطفال يصعد في السماء. وفي أحد الأيام تمردت هذه الشموس على أوامر السماء وظهرت جميعاً في السماء في وقت واحد، فاحترقت المحاصيل وجفت البحار حتى أن أنهار الجليد ذابت. وتضرّع الامبراطور الكونفوشيسي الأسطوري ياو إلى تيايانغ ديجون طالباً المساعدة، وأرسل الإله يي مع أسهمه ليخيف الشموس ويعيدها إلى شجرتها، ولكن يي قرر أنه ليس لديه خيار سوى إصابة الشموس، ومع كل سهم أطلقه كانت تظهر كرة نارية كبيرة في السماء ويسقط غراب بثلاثة أرجل على الأرض. وشعر الامبراطور ياو بالخوف، فإن لم يتوقف يي فسيبقى العالم حبيس الظلمة إلى الأبد، وقام بسرقة أحد السهام من جعبة الرامي وهكذا تم الحفاظ على الشمس الأخيرة. ويصّور النحاتون الصينيون في عهد سلالة هان الحاكمة غراباً بثلاث أرجل في الشمس، وترمز الأرجل الثلاث إلى الفجر والظهر والغسق.

وفي الصين، كما في أغلب بقاع العالم، احتلت الغربان أهمية كبيرة في الأساطير العالمية كما في الأساطير المحلية على الأقل. وتدور إحدى القصص الساحرة حول رجل أصبح غراباً وهي من المجموعة القصصية المعروفة باسم« قصص غريبة. Strange Stories من استديو الصين Chinese Studio والتي كتبت في القرن السابع عشر وتنسب إلى باو سونغ لينغ. وهي تحكي قصة شاب من عائلة فقيرة يدعى يي جونغ من مقاطعة هونان، وقد فشل في اجتياز امتحاناته وشعر باليأس، فتوقف للصلاة في معبد وو وانغ إله الغربان الطاوي[1]. وكاد الشاب أنْ يجلس ليستريح عندما جاءه خادم وقاده إلى حضرة وو يانغ نفسه. وبناء على أوامر الإله مُنح الطالب المسكين ثوباً أسود، عندما ارتداه تحوّل إلى غراب. وتزوج من غراب أنثى تُدعى شو شيينغ ومعاً وبرفقة آخرين من سربهما كان يلتقط الكعك وبقايا اللحم التي

(١) الطاوية: مجموعة من التقاليد والمبادئ الفلسفية والدينية التي سادت في شرق آسيا لأكثر من ٢٠٠٠ عام وترتكز على ثلاثة مبادئ: التعاطف والاعتدال والتواضع.



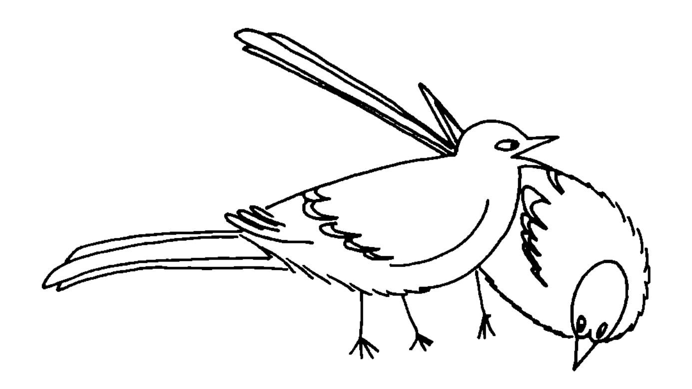
على الرغم من السمعة السلبية بشكل عام التي ترافق الغربان في الثقافة الاسلامية، فإن رواة القصص والفنانين معجبون بذكائها في الحكاية الخرافية «الغربان التي احتالت على البوم وحبستها في الكهف». وهذه الصورة تعود إلى القرن الرابع عشر من مجموعة من القصص العربية الخرافية في كتاب «كليلة ودمنة» وهو ترجمة عن الكتاب الهندي المبادئ الخمسة Panchatantra.

يلقيها البحارة من أجل الحظ. ومع ذلك لم يتمكن الشاب من العمل بنصائح زوجته واقترب من البشر مغامراً فأصابه سهم جندي في صدره.

وفجأة عُثِرَ على يي جونغ نفسه في هيئته البشرية وهو يتمدد مصاباً على أرض المعبد. ولدى شفائه لم ينس حياته كغراب مع شو سيينغ وعاد للتعبد في المعبد، والتضرع لوو وانغ وترك طعاماً للغربان. ولاحقاً، وبعد أن اجتاز يي جونغ امتحاناته قدَّم خروفاً كأضحية مما جلب سرباً من الطيور وكانت شو شيينغ من بينهم والتي أصبحت روحاً للنهر. وأعادت الثوب الأسود لزوجها وأخبرته أنه لو رغب في رؤيتها فكل ما عليه هو ارتداء الثوب الأسود والتحليق الى منزلها.

وفي الملحمة الشعرية الهندية القديمة رامايانا[1] Ramayana، يتخذ ياما إله الموت شكل غراب ليختبئ من الشيطان رافانا. ولدى عودته إلى شكله

(١) تُنسب إلى الحكيم الهندي فالميكي وتشكل جزءاً مهماً من الشريعة الهندوسية.



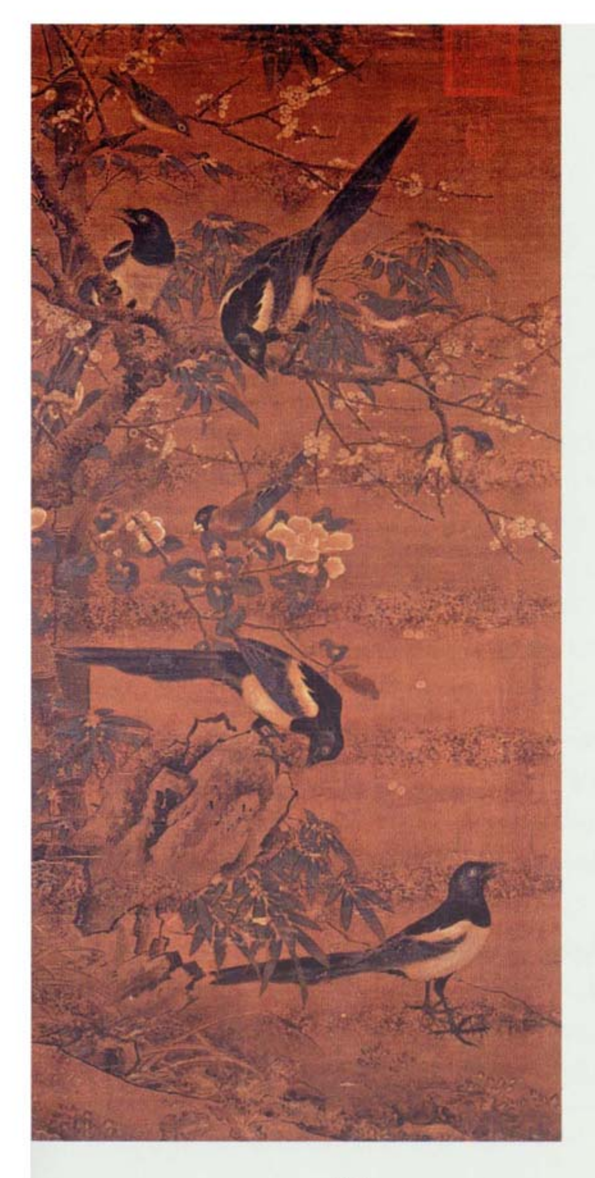
تصميم لوعاء فخاري ياباني مصنوع في القرن التاسع عشر ويظهر فيه غرابا عقعق.

الحقيقي، يبارك ياما الغراب قائلاً إن هذا الطائر لن يموت أو يشيخ أو يمرض أبداً ولكن مع ذلك يمكن أن يُقتل. وبسبب هذه المباركة تأكل الغربان قبل البشر حتى في أوقات المجاعات القاسية. وبعض الهندوس يتركون الطعام للغربان كتقدمة لياما على أمل أن يكون رحيماً مع أصدقائهم وعائلاتهم الراحلين. ولكن الغراب في الهندوسية لا يُنسب إلى ياما فقط بل أيضاً إلى فارونا ملك السموات الحكيم.

قد يكون البوم مشهوراً بالحكمة في التراث الشعبي الغربي ولكن في الهند فإن هذا الشرف يعود للغراب. وفي كلا المعتقدين فإن الغربان والبوم تقتتل فيما بينها في حرب ملحمية، قد تمثّل الصراع بين النهار والليل. ويخصص كتاب المبادئ الخمسة Panchatantra، وهو شعر ملحمي عظيم عن الحيوانات من التراث الهندوسي، فصلاً كاملاً للصراع بين الغربان والبوم.

ذات مرة اجتمعت الطيور لتختار لها ملكاً واختارت البوم لمظهره الجليل، وبينما كانوا يحضرون لتتويج رائع يجلس فيه البوم على عرش ذهبي تزينه الأسود ويلقي فيه البراهمانيون[1] Brahmans الشعر وتغني الحسناوات، يظهر الغراب أذكى الطيور فجأة ويضحك من اختيارهم فقد كان البوم قبيحاً

(١) أعضاء في أعلى هيئة دينية لدى الهندوس.



يعرف غراب العقعق في الصين على أنه «طائر الفرح» ويرتبط بشكل خاص بالبركة الزوجية. ويصوّر الفنان زاو شانغ أربعة طيور عقعق Four Magpies على اللفافة الحريرية التي تعود لعهد سلالة سونغ الحاكمة[1]، كما لو أنها أزواج على الرغم من أن رمزيتها ليست واضحة بسبب أسلوب الفنان الواقعي.

(١) سلالة من الحكام الصينيين حكمت الصين ما بين ٩٦٠. ١٢٧٩ م.

جداً بمنقاره المعقوف وعينيه الجانبيتين. وأضاف الغراب أن الرقة ليست من صفات البوم وأن الشفقة ليست من طبيعته. وإلى جانب ذلك، فإن للطيور ملكاً هو الجارودا، الكائن ذو رأس النسر للإله فيشنو (١)Vishnu وإنّ اتخاذ ملك آخر سيكون إهانة للسماوات. ومضى الغراب بسرد حكايات كثيرة عن هؤلاء الذين قاموا بخيارات حمقاء ودفعوا ثمن ذلك. ووافقت الطيور الأخرى على ما قاله وطارت بعيداً. وعند المساء جاء البوم الذي كان نائماً طوال النهار، ليحضر حفل تتويجه، وعلم بما حصل ووقعت العداوة بين البوم والغربان منذ ذلك الحين.

وما حصل لاحقاً هو حكاية عن خيانة دنيئة وشرسة، تشبه حروب شيوخ القبائل الصغيرة في العالم القديم. كان ملك غربان يدعى كلودي يحكم مع بلاطه شجرة تين عظيمة، في حين أن ملك البوم ويدعى فو كروشر أقام بلاطه في كهف مجاور، وقام مع حاشيته بقتل كل غراب يصادفونه حتى اكتست قاعدة شجرة التين بجثث الغربان. وأخيراً دبّر غراب ذكي يدعى لييف سترونغ خطة للانتقام من البوم.

في شجار مدّبر أهان كلودي لييف سترونغ ونقره برقة حتى غطاه بالدم وطار إلى بلاطه. وكما خطط الغراب، نقل الجواسيس أخبار هذا الشجار إلى فو كروشر والذي رحب بلييف سترونغ كحليف للبوم. وسحر الغراب المخادع ملك البوم حتى أنه منحه أطايب الطعام، وعاش خارج كهف البوم حيث قام بالتدريج ببناء كومة من العيدان. وفي أحد الأيام، وبينما كان البوم نياماً جاءت الغربان وأشعلت فيها النار وأحرقت خصومها حتى الموت.

ولعل أكثر الطيور سحراً في عائلة الغرابيات هو غراب العقعق، المعروف في الشرق والغرب بثرثرته الدائمة وسرقته الأشياء اللماعة. ويُعرف غراب العقعق العادي (بيكا بيكا Pica Pica) بعلامات متناقضة من الأبيض والأسود في غالبية القارة الأورو- آسيوية وأجزاء من الولايات المتحدة. وإن كان مظهر غراب العقعق الأخضر في شرق آسيا لافتاً للنظر أكثر، بريش

(١) الإله الثاني في الثالوث الهندوسي (براهما وفيشنا وشيفا).

لامعٍ كما لو أنه طائر من الجنة. وعلى الرغم جميع طرقه الملتوية فلا يزال رمزاً للحياة العائلية حيث أنه يبني أعشاشاً مقببة ومعقدة بشكل غير مألوف تتدلى من الأغصان ويتم الدخول إليها من جانب واحد. ويعني اسم طائر العقعق باللغة الصينية حرفياً: (طائر الفرح)، وهو يُعرف على أنه حامل البشائر الجيدة.

وبالإضافة إلى ذلك كله، فإن غربان العقعق نصيرة الحب، حيث تدور إحدى الحكايات المشهورة، والتي يوجد لها أشكال عديدة من الروايات في غالبية شرق آسيا، حول الفتاة الحائكة زي نو والتي تزوجت من شاب يدعى كيان نيو يعمل راعياً للثيران. كانت الفتاة الحائكة حفيدة امبراطور السماء وكانت مهمتها حياكة القماش السماوي من نماذج الغيوم. لكنها بعد زواجها أصبحتْ تمضي وقتها كله تضحك وتلهو مع زوجها وأهملت واجباتها. وأخيراً قرر امبراطور السماء أنهما يجب أن يفترقا فوضع زي نو في السماء الشرقية وكيان نيو في السماء الغربية ووضع بينها درب التبانة، وعندها بكى الزوجان كثيراً حتى حدثت فيضانات عظيمة في الأرض.

وفي النهاية، في اليوم السابع من الشهر السابع من السنة الصينية، طارت غربان العقعق (وفي بعض الروايات الغربان) وشكلت جسراً عبر السماء بين الفتاة الحائكة نجمة فيغا Vega(النسر الواقع[1] وبين الراعي نجمة النسر[2] Altair على طرفي السماء وفي كل عام تجمعهما الطيور معاً.

(١) أكثر النجوم لمعاناً في كوكبة ليرا أو السلياق في النصف الشمالي من الكرة الأرضية.

(٢) أكثر النجوم لمعاناً في كوكبة اكيلا أو العقاب في النصف الشمالي في الكرة الارضية.

5- ثقافة سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر)

الأرض. الغراب

الأرض. الغراب

أحضرها الغراب معه

أحضرها الغراب معه

من أغنية لهنود الأراباهو[١]

إنَّ أبرز ظهور للغراب أو الغراب الأسود كان في أساطير أقصى الشمال، ويعود السبب جزئياً في هذا الى أن اللون الأسود للغراب يظهر بشكل دراماتيكي في مقابل لون الثلج الأبيض، وأيضاً قد يعود السبب جزئياً إلى أن صرخات الغراب يتردد صداها بقوة في السكون القطبي. ولكن التفسير الأكثر أهمية هو الخوف والإعجاب بقدرة الغراب على البقاء حياً بالاعتماد على الجيف، في المناطق الشمالية القاسية، حيث يندر وجود طعام كاف.

يتشارك الانويت (الاسكيمو) وسكان الساحل الشمالي الغربي عِبادة الغراب أو الغراب الأسود مع سكان سيبيريا مثل قبائل الكورياك، والتي توحي بأن هذه الأساطير قد ارتحلت عبر مضيق بيرنيغ. ولم يميز سكان أمريكا الأصليون بوضوح بين الغراب والغراب الاسود، شأنهم في ذلك شأن الأوروبيين قبل الفترة الحديثة. وعلى أية حال، يبدو أن الغراب (كما سندعوه لتسهيل الأمر) يقوم بتغيير شكله وشخصيته باستمرار خلال مسار المغامرات.

كانت للغراب شهرة واسعة في معرفة النبوءات بين الانويت (الاسكيمو) كما هو الحال في أوروبا وآسيا، حيث يقوم الانويت (الاسكيمو) في بعض الأحيان بالاحتفاظ بمخلب غراب كتميمة (طلسم) ليساعدهم في البحث عن الطعام، على اعتبار أن الغربان تظهر دائماً عندما يُقتل حيوان أو إنسان..

---

(١) قبيلة من سكان امريكا الأصليين (الهنود الحمر). في الماضي عاشوا في غرب كولورادو وجنوب شرق وايومنغ واليوم يعيشون في اوكلاهوما ووايومنغ في الولايات المتحدة الامريكية

في بعض الأحيان ولدى رؤيتهم للغربان تحلق فوق رؤوسهم كانوا ينادون عليها متسائلين ما إذا رأت أيلاً (غزال الرّنة) أو دباً. كانوا يعتقدون (وفي الأغلب أنهم لا زالوا) أن الغربان ستحني أحد جناحيها لترشدهم الى حيث الطريدة. ويقول الانويت (الاسكيمو) أنه غالباً ما يُرى غراب يطير فوق كوخ الشامان عندما تغادر روحه جسده لتبدأ التحليق.

وتحكي إحدى أساطير التكوين القليلة لدى الانويت (الاسكيمو) عن كائن يدعى تولونغوساك Tulungusaq، والذي انبثق من السماء. وعندما أراه السنونو الطين الموجود في أسفل الفراغ، اتخذ شكل غراب أو غراب أسود ليستعيد هذه المادة القديمة (البدائية) وليشّكل منها النباتات والحيوانات والرجال، وعندما استفاق من دهشته لما كوّن قام الغراب بصنع النساء ليرافقن الرجال، وأخيراً صنع الشمس والقمر ليخفف من الظلمة البدائية.

ويميّز هنود قبيلة هايدا، الذين يعيشون في جزر الملكة شارلوت[1]، بين مجموعتين من القصص حول الغراب. ففي مجموعة الغراب الأعظم، والتي عادة ما تُحكى بنغمات شعائرية، كان الغراب هو الخالق الذي أوجد الأرض على البحر اللانهائي. وهذا الغراب هو من كوّن البشر من كلٍ من الصخر وأوراق النباتات، ولكن البشر المصنوعين من الصخر لم يكتمل تكوينهم أبداً، في حين أن البشر المصنوعين من أوراق الشجر سرعان ما كانوا مستعدين للتحرك. وعرّف الغراب الأعظم البشر على ورقة الشجر وأخبرهم أنهم مثل هذه الأوراق سيسقطون ويتفسخون حتى لا يبقى منهم شيء، وبهذه الطريقة أتى الموت إلى العالم.

تحكي إحدى الأساطير أن الغراب الأعظم كانت لديه أخت ولكنه لم يشأ أن تلد ذكوراً خوفاً من أن يقوموا بتحديه، وكان لها أطفال كُثر قام بقتلهم جميعاً. وبناء على اقتراح مالك الحزين (طائر البلشون) ابتلعت الشقيقة حجراً ملتهباً وأصبحت حاملاً بسببه، ثم ولدت الغراب الأصغر والذي كان

(١) أرخبيل من الجزر على ساحل كولومبيا البريطانية في كندا.



تصميم لزورق هندي (كانو) لدى قبيلة كواكيوتل Kwakiutl على شكل غراب.

صلباً كالحجارة وقادرا على العيش إلى الأبد. وعندما رأى الغراب الأعظم ما حدث، منح الطائر الشاب السيادة على العالم وانسحب. وعثُر على رواية مختلفة لهذه الاسطورة بين هنود أثاباسكان Athabascan في شمالي كندا والتي تأثرت ربما بالمسيحية. ففي حكاية تذكرنا بقصة قابيل وهابيل، يحكي هنود اثاباسكان عن الغرابين الأولين، أحدهما كان أبيض اللون والثاني أسود اللون، حيث خلق الغراب الأبيض العالم ولكن الغراب الأسود أعمته الغيرة فقتل أخاه.

يشبه الغراب الأصغر الذئب الأمريكي (القيوط) وهو أكثر المخادعين شهرة بين هنود الجنوب الغربي للولايات المتحدة، حيث كان كلٌ من الشخصيتين الأسطورتين مضحكاً وحكيماً، ولكن في حين أن الذئب الأمريكي (القيوط) كان معروفاً برغباته الجنسية، اشتهر الغراب بنهمه، وهذا كان الدمار الضروري لبدء سلسلة تكوين جديدة في الحلقة الأبدية للموت والولادة، حيث لعب الغراب دوراً كبيراً في تشكيل العالم ومع ذلك فإن ذلك كان نتيجة عرضية لخداعه.

كانت سرقة الغراب لنور العالم من أشهر مآثره، وهي قصة تُحكي بروايات عديدة بين قبائل الساحل الشمالي الغربي. يورد هنود تسيمشان Tsimshan أن الغراب قام بنثر السمك والفواكه على طول العالم حتى يجد دائماً ما يأكله، ولكنه خشي أن يكون العثور على هذا الطعام صعباً، حيث أن العالم كان لا يزال يعيش في الظلام. فطار الغراب من خلال فتحة في السماء حيث عثر على عالم يشبه عالمنا كثيراً. وأتت ابنه زعيم

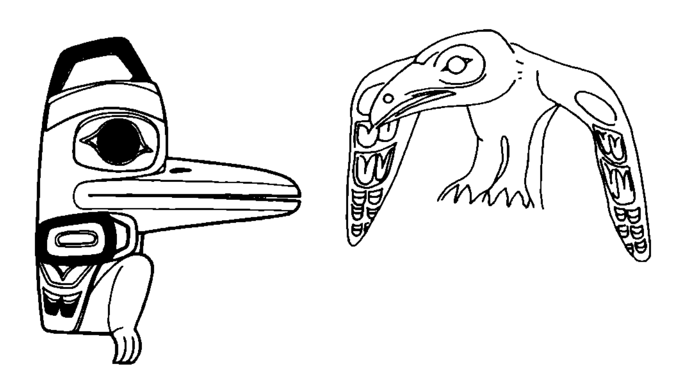


مقدمة زروق (كانو)
بطول عشرين متراً
كان مستخدماً من قبل
عشيرة الغراب من هنود
التلينغيت Tlingit.

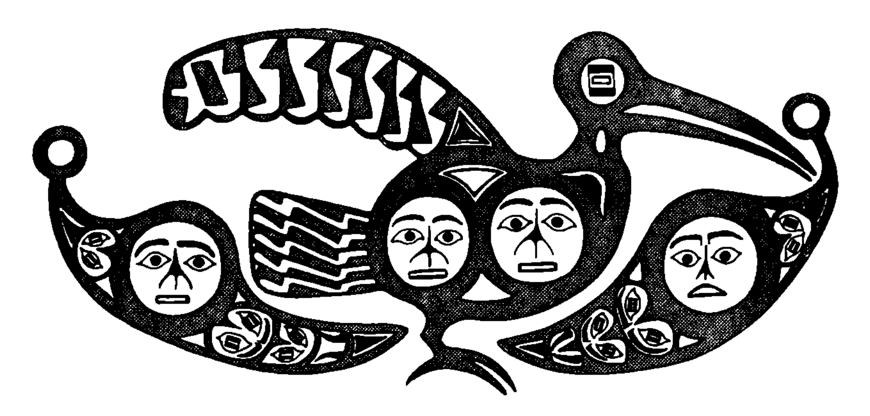
الجنة لتغرف بعض الماء من الجدول، وحوّل الغراب نفسه الى هيئة ورقة ابرية من شجرة أرز وطفا الى دلوها، وعندما شربت الأميرة الماء دخل الغراب إلى جسدها وأصبحت حاملاً وولدت الغراب في هيئة صبي صغير. افتُتن الزعيم وزوجته بالطفل الرضيع وسمحا له باللعب بالصندوق الذي يحتوي على ضوء النهار. وفجأة فرَّ الغراب هارباً وهو يحمل الصندوق واستعاد هيئته الأصلية وطار عائداً إلى الأرض عبر الفتحة في السماء. وفيما بعد، كسر الغراب الصندوق في فورة غضب، وامتلأت السماء بالشمس والقمر والنجوم.

قد يذكرنا تعقيد وغموض وتغيرات الهيئة المتكررة التي يقوم بها الغراب في قصص سكان أمريكا الأصليين في الساحل الشمالي الغربي بالعديد من آلهة العالم القديم، حيث يشبه الغراب قليلاً الإله دينوزيوس اليوناني[1] والإله النرويجي لوكي أو الإله سيفا الهندوسي على الرغم من أنه أقل تجسداً بكثير من أي منهم. وبسبب حيويته المفرطة يمكن أن يكون شخصية يصعب الارتباط بها، على الأقل بالنسبة لغير الأعضاء في الثقافات القبلية

(١) اله الخمر والخصوبة عند اليونان.



صورة تمثل غراباً منحوتاً على عمود طوطمي في الساحل الشمالي الغربي لأمريكا الشمالية.



صورة مأخوذة عن عباءة لهنود نوتكان من القرن الثامن عشر، للغراب الإله واثنين من المخلوقات البحرية، منسوجة من لحاء شجر الأرز وخيوط نبات القراص.

لتابعيه. ويمكن ان تصبح الحكايات معقدة جداً لدرجة أن شخصية الغراب تغدو مبدأً تجريدياً أكثر منها حيواناً. وفي الحقيقة، قد تشبه نوعاً ما القصص التي يرويها علماء الكونيات المعاصرون حول القوى البدائية أو الجسيمات في بداية الكون.

وأصبح الغراب بين هنود الجنوب الغربي مركز الشعائر المباركة مما يبدو محزناً يشكل عميق اذا استعدنا أحداث هذه الفترة. عادة ما يتذكر الأمريكيون العقد الأخير من القرن التاسع عشر على أنه (فترة التسعينات السعيدة)، وهي فترة التوسع الاقتصادي غير المحدود، حيث كان رجال



رقصة الغراب كما يؤديها الأمريكيون الأصليون في التسعينات من القرن الثامن عشر، سجلها رسام معاصر.

الأعمال مثل ج.ب. مورغان يبنون امبراطوريات مالية هائلة، وتم تشييد سكك حديدة شاسعة على امتداد أمريكا الشمالية مما فتح أمام المستوطنين الأوروبين أماكن كانت مُحرّمة من قبل، وكان هنري فورد في بداية تصنيع أوائل السيارات الأمريكية. لكن بالنسبة للهنود الحمر هذه الفترة لم تكن سعيدة على الاطلاق. كانت طرق حياتهم التقليدية على وشك الاختفاء وكذلك قطعان الجاموس التي يعتمد عليها الكثير منهم في معيشتهم، وحجم محمياتهم آخذ بالتناقص باستمرار حتى أن الهنود الحمر أنفسهم استمروا بالوقوع فريسة للأمراض وللادمان على الكحول .

حوالي عام ١٨٩٠ وخلال الكسوف الشمسي راودتْ أحد هنود البايوت ويسمى وفوكا، رؤيا ادعى أنه رأى الرب فيها، وعاد ليخبر قومه أنه عليهم أن يحبوا بعضهم ويعيشوا بسلام مع البيض ويترفعوا عن الكذب أو السرقة. عندها فقط سيعيد اليهم الرب أرضهم الى ما كانت عليه وستعود الطرائد وسينهض أجدادهم من بين الموتى، وسيعيش الهنود الحمر في عالم متجدد خال من الشيخوخة والمرض والموت. وللإسراع بحدوث هذا التغيير قام الهنود بأداء رقصة لخمسة أيام وخمس ليالٍ مع فترات استراحة قصيرة.

اعتبر الهنود الحمر ظهور وفوكا على أنه مجيء المسيح الثاني على الرغم من أنه لم يدع هذا.

جددت الشعائر الجديدة الأمل ولكنها بلغت ذروتها بمأساة كبيرة، حيث سرعان ما أصبح هناك العديد من النسخ والتفسيرات لرقص الأشباح بين القبائل المختلفة. واعتقد بعضهم أن الأرض المستعادة ستكون لجميع الهنود أو فقط لهؤلاء الذين تقبلوا النبي، في حين اعتقد آخرون أن جميع الأعراق ستتشاركها، واعتبر هنود السيوكس تعاليم وفوكا السلمية في الأصل كخطة حرب. وفي تلك الأثناء كانت الهيئات الحكومية تشعر بالخوف من اتحاد قبائل الهنود في أداء طقوس غامضة. وكانت النتيجة تصعيد التوتر الذي بلغ ذروته في مذبحة ووندید ني Wounded Knee في كانون الأول ١٨٩٠ وبالقضاء الكامل على طريقة حياة الهنود الحمر التقليدية.

كان النسر هو الطائر المركزي في معظم أساطير الهنود الحمر على امتداد الولايات المتحدة، ولكن في أوقات الأزمات كانوا يفكرون بالغراب أكثر. كان النسر رمزاً للشمس وللترتيب الكوني والذي قد يوفر الهاماً في الأوقات العادية، ولكن في أوقات الأزمات الشديدة بدا أن الغراب يقدم أملاً أكبر في العزاء، كونه يمثل النور والظلام في آن معاً. كان الوصول إلى الغراب أكثر سهولة وكذلك كان هو الناجي الجوهري. وغالباً ما كان يوضع غراب محنط في مركز الدائرة التي يتحرك فيها الراقصون، وكذلك كان الغراب ممثلاً على قمصانهم وطماقهم وأحذيتهم وكان الراقصون يقلدون نداءات الغراب كأحاديث النبوءات.

دائماً ما لجأ الناس في أوقات اليأس إلى التقاليد الدينية القديمة، حيث ورد في الانجيل مثال على ذلك، وهو أنه أثناء هروب اليهود من مصر ارتدوا الى الديانة المصرية وعبدوا عجلاً ذهبياً. وفيما بعد، كادوا أن ينسوا يهوه إله قبيلتهم، ولكنهم كانوا يعودون الى عبادته كلما أصبح وجودهم مهدداً. وربما كان تجديد تبجيل الغراب والذي كان أساسياً بالنسبة للمهاجرين الأوائل الذين عبروا مضيق بيرينغ إلى العالم الجديد شبيهاً بذلك. كانت ديانة رقص

الأشباح هي عودة قوم غالباً ما اعتُبِروا بدائيين على أية حال إلى تقاليد قديمة شبه منسية.

وفي الوقت نفسه كانت اعتناقاً للمسيحية وربما بطريقة أصيلة أكثر من تلك التي اتبعها الأوروبيون الذين أدخلوها. كانت ديانة رقص الاشباح الوجدانية تحمل آلاف التوقعات، وتشبه كثيراً المسيحيين الأوائل، أكثر من الايمان البيروقراطي للمستوطنين الأوروبيين، حيث عاش المسيحيون الأوائل، مثل أتباع ديانة الأشباحِ الراقصة، وهم يترقبون تغير العالم الوشيك الحدوث، وهم مثل الهنود أيضاً قد وضعوا إيمانهم في التجربة القديمة أكثر منها في التعاليم التي وصلتهم. وكان الغراب في ديانة رقص الأشباح نظير الحمامة تقريباً رمز الروح القدس بالنسبة لتابعي المسيح الأصليين.

في بعض الأحيان كان قادة رقص الأشباح يرتدون ريش النسر ولكنهم في الغالب كانوا يرتدون ما يعرف باسم (واكونا) «wakuna» وهو يتألف من ريشتي غراب تُربطان معاً عند القاعدة ولكنهما متباعدتان قليلاً عن بعضهما، ويضعهما الراقص على رأسه وكذلك الراقصون الأخرون يضعون ريشاً ملوناً ومرتباً بعناية قبل بدء الطقوس. يمثل هذا الريش الأجنحة الملائكية التي بواسطتها سيرتقي الراقص إلى الجنة. وتقول إحدى الأغنيات التي تُغنى خلال رقص الأشباح بين هنود الأرباهو:

يا أولادي، يا أولادي
الرياح تجعل الريش على الرأس يغني –
الرياح تجعل الريش على الرأس يغني.
يا أولادي. يا أولادي(١)

وتقول أغنية أخرى:
أبانا، الزوبعة
ابانا، الزوبعة

يرتدي الآن عُصابة رأس من ريش الغراب
يرتدي الآن عُصابة رأس من ريش الغراب (٢).

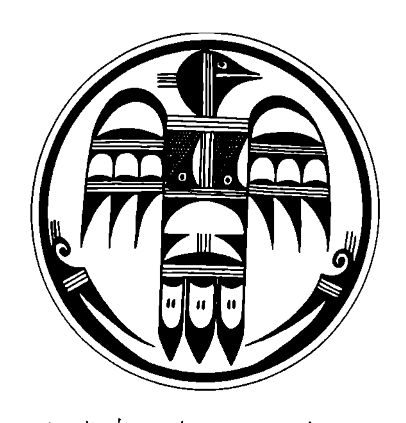
وأثنت العديد من الأغنيات الأخرى على الغراب، حيث كان يتم تأليفها وغناؤها بشكل عفوي أثناء رقص الأشباح كاستجابة للرؤى حول الأجداد الراحلين أو الأرواح التي يلمحها الراقصون خلال نشوتهم. وهذه اللازمة لأغنية مشهورة أخرى بين هنود الأرباهو.

الغراب يدور فوقي
الغراب يدور فوقي
الغراب قادم من أجلي
الغراب قادم من أجلي (٣).

رأى الراقص الذي ألّف هذه الأغنية غراباً يحلق فوق رأسه، واعتقد أنه كان مبعوثاً ليقوده الى أقاربه الراحلين.

احتفظت الرقصات والطقوس التي تتمحور حول الغراب حتى يومنا هذا بأهميتها بالنسبة للهنود في جريت بلاينز Great Plains، ليس كطقوس تُمارس في العلن بقدر ما تتم في الجمعيات الطقسية. فمثلاً، لدى هنود الباوني جمعية تدعى جمعية رمح الغراب، أنشأها كشّاف عثرت الحيوانات على جثته، وأرادت الذئاب الامريكية (القيوط) أن تلتهم جسده ولكن الغربان أحيته وقادته إلى كهف حيث رقص مع الغربان لثلاث ليالٍ، وبعد انتهاء شعائر عودته مُنح رمحاً مغطىً بريش الغربان وهذا الرمح يؤدي إلى النجاح في الصيد وفي الحرب.

اعتبر هنود الهوبي الذين يعيشون في الجنوب الغربي لأمريكا ويعتمدون في معيشتهم على الزراعة الغراب حشرة ضارة، على الرغم من أنهم أيضاً كانوا يكنون للغراب احتراماً تسوده النقمة. وتحكي إحدى قصص هنود





إلى اليسار: تصميم يظهر طائراً، ربما كان غراباً، على وعاء فخاري من القرن العشرين لهنود الهوبي.
إلى اليمين: الغراب الأم يرافقها اثنان من الكاشينا[٢] kachinas عند أداء طقوس انتساب الشباب إلى مجتمع هنود الهوبي.

الهوبي كيف أن الغراب دعا في إحدى المرات صديقه الصقر إلى العشاء، وقدم له أفعى ثور[١] كثيرة الدهون وقد بدأت بالتفسخ فعلاً. تظاهر الصقر بالأكل بكل تهذيب حتى أنه امتدح الغراب لفنه في الطبخ في حين أنه كان يخطط للانتقام. وبعد فترة وجيزة، قام الصقر بدعوة الغراب إلى العشاء، وقدّم له طعاماً عفناً مؤلفاً من جلد وأحشاء الأرانب، وبدلاً من أن يستدير الغراب متقززاً، أنهى طعامه بنهم تاركاً الصقر حانقاً أكثر من قبل.

ومع ذلك، يمكن أن يكون الغراب رمزاً للتربية (الاحتضان) ووفقاً لبعض هنود الهوبي، فإن الجدة الأم لجميع الكاتشينا والتي تعيش في عالم الأرواح كانت شخصية تُعرف باسم الغراب الأم؛ تنمو أجنحة غراب من رأسها وغالباً ما تحمل وعاءً من الماء وهو مصدر الحياة، وتشرف على شعائر انتقال الشباب الى مرحلة الرشد. ولدى بعض الهنود الحمر في الشمال الشرقي للولايات المتحدة مثل هنود ليناب Lenape في نيويورك أساطير تقول إن الغراب كان أول من أحضر حبوب القمح للبشر.

ووفقاً لإحدى الأساطير لدى هنود ليناب Lenape في بنسلفانيا، فإنه كان للغراب ريش ملون ساطع وصوت رخيم. وعندما بدأ الثلج يغطي العالم للمرة الأولى، تم إرسال الغراب كمبعوث إلى الخالق، ولكنه كان مشغولا

(١) نوع من الأفاعي غير السامة المنتشرة في شمال أمريكا

(٢) أي من أرواح أجداد القبيلة الراحلين.



صورة لقناع على شكل غراب عند هنود كواكيوتل Kwakiutl في عام ١٩١٤ م. اشتهر هنود كواكيوتل بأعمدتهم الطوطمية وأزيائهم التي يصنعونها لكي يستطيعوا بواسطتها تمثيل الأساطير مثل أسطورة الغراب.

جداً ولم يلق انتباهاً إلى ضيفه غراب قوس قزح كما كان يُدعى. واستطاع الغراب جذب انتباهه بأغنية جميلة، فأخبر الخالق الغراب أنه لا يمكن إيقاف الثلج ولكنه أعطاه شعلة من الشمس فحملها الغراب عائداً إلى الأرض حيث أنقذت الحيوانات بفعل الدفء الصادر عنها.

ولكن للأسف، بسبب احضاره لتلك الشعلة، احترق الغراب حتى

تحول ريشه إلى اللون الأسود وأصبح صوته أجشاً. وتقديراً لبطولته تلك، جُنِّب الغراب سيطرة البشر، ولا تزال نداءاته تحذر الحيوانات بوجود خطر في الغابات، ولا يزال من الممكن رؤية ألوان قوس قزح تشع من ريش الغراب القاتم عند النظر بدقة.

قد لا تبدو الغربان غريبة بالنسبة للناس في العالم الصناعي ولكنها كذلك بالتأكيد بالنسبة لسكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر). وربما شجعت هذه الظروف انتشار أدب الهنود الحمر في الشكل الانتقائي للروحانية المعروفة اليوم باسم (العصر الحديث). فمثلاً، يورد أحد الكتب التي صدرت مؤخراً عن علم التنجيم لدى الهنود الحمر أن: (الأشخاص من طالع الغراب هم أفراد استثنائيون بشكل خاص فهم يتصرفون كمحفز طبيعي للتغيير في حياة الآخرين، ولتحقيق ذلك، فإنهم دبلوماسيون ويُظهرون اهتماماً واحتراماً كبيرين لبني جنسهم من البشر) ولكن يتوجب الحذر فإن الأشخاص من طالع الغراب يميلون للشعور بالاكتئاب إذا حُرموا من التواصل الاجتماعي (٤).

من المشكوك فيه أن يكون هذا الوصف وفياً لروحانية الهنود الحمر، ويذكرنا أسلوب الكتابة بالخرائط الفلكية المرسومة على المفارش الورقية لمطعم صيني. ويرثي الكثيرون من الهنود الحمر للروحانية التي يُسوّقها الآخرون باسمهم، في حين يقوم آخرون من الهنود الحمر بتجاهل تراثهم أو يضحكون عليه أو يشاركون في المتاجرة به. وعلى أية حال، فإن أبسط منتجات الثقافة الشعبية تحتوي عناصر الروحانية الأصيلة، وقد يكون التقدير المتجدد للحيوانات مثل الغراب، أحد الأمور التي نقلها هؤلاء الأمريكيون إلى الحضارة السائدة وإن يكن بأبسط الأشكال.

هوامش

١ جيمس موني، The Ghost Dance Religion and the Sioux Outbreak of 1890 (شيكاغو، ١٩٦٥)، الصفحة: ٢١٤.

٢ المرجع السابق، الصفحة: ٢١٩.

٣ المرجع السابق، الصفحة: ٢٣٤.

٤ بورنز، ديبي، Animal Totem Astrology: How to Use Native American Totems to Uncover your Unique Relationship to Nature and the Seasons (سيدني، ٢٠٠١)، الصفحة: ٣٥.

6-العصر الرومانسي

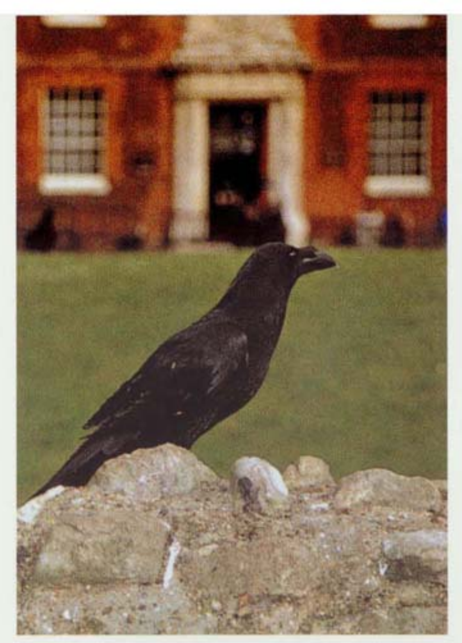
تقود غربان الشتاء العديدة صغارها ذات الأصوات العالية إلى المنزل.
تينيسون[1]، قاعة لوكسلي Locksley Hall

وصل العالم الحديث إلى حالة دُمرت فيها العديد من الثقافات التقليدية ودفعت أنواع عديدة من الحيوانات إلى الانقراض، وأصبحت المخلوقات الأخرى مثل الأقوام (البدائية) موضوعاً للعجب والتسلية على المعلبات وبرامج التلفاز الخاصة التي تحتفي بالقليل المتبقي من عالم الطبيعة. وفي معظم الأوقات، تتعرض المخلوقات مثل الذئب والحوت إلى الملاحقة والتودد في آن معاً، حيث تتعارض فوضى الحاضر مع شكوك المستقبل المطلقة، ووجد الناس ملجأ لهم في الماضي الذي جعلوه مثالياً. فأصبح الماضي في خيالهم أكثر عفافاً وإثارة وتحضراً وبطولة أو أكثر حيوية من الزمن المعاصر، وأثارت الصورة القديمة للغراب المحلق فوق الحقول في هذه الثقافة التوّاقة إلى الماضي كلاً من الإعجاب والخوف.

إن ما نسميه (العالم الحديث) هو نتيجة لسلسلة من الانقلابات والثورات عبر القرون القليلة الماضية في المجالات الاجتماعية والسياسية والتقنية. لا يمكن للناس أنْ يتّفقوا حتى على الوقت الذي بدأت الحداثة فيه. ومع ذلك ففي تاريخ الغربان، ربما نستطيع أن نؤرخ ذلك اعتباراً من حريق لندن الكبير في عام ١٦٦٦. ففي ذلك التاريخ وصل تبجيل الغربان إلى نهاية مفاجئة، على الأقل بالنسبة للعديد من سكان المدن في انكلترا.

كانت الغربان، كما رأينا من قبل، محمية لفترة طويلة في انكلترا. وفي عام ١٦٦٦ نشب حريق في مخبز بالقرب من جسر لندن واستمر حوالي

(١) الشاعر الانكليزي لورد ألفريد تينيسون (١٨٠٩-١٨٩٢م).



صورة تمثل أحد غربان برج لندن.

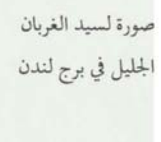
أسبوع، وقد دمّر حوالي ١٣٠٠٠ منزل. ولم تتمكن السلطات من التعامل مع الخراب الناتج عنه او من دفن الموتى، وأصيب الناجون بالرعب لرؤيتهم الغربان والغربان السوداء تنقر الجثث المحترقة في الشوارع. وبشكل خاص، طارت الغربان السوداء أسراباً إلى لندن من أجل الوليمة، وتضاعفت أعدادها هناك، حتى أنَّ المواطنين ناشدوا الملك لإبادتها. وقُتلت أعداد كبيرة منها ودُمرت أعشاشها ولكن الملك تشارلز الثاني تذكر الأسطورة القديمة التي تقول ان الغربان في برج لندن تحمي مملكته. ولكن بما أنه لم يعد من الممكن احتمال الغربان البرية، أمر الملك بإحضار الغربان المحلية ليتم التعامل معها والسيطرة عليها من قبل شخص يُعرف بأنه سيد الغربان الجليل Yeoman Raven Master..

وربما تكون الغربان قد ساعدت فعلاً في منع تفشي وباء الطاعون الدبلي

كما حدث في عامي ١٦٦٤ و١٦٦٥ في انكلترا والذي وقع ضحيته ٧٥٠٠٠ شخص. ولو لم تلتهم الغربان تلك الجثث لكانت الجرذان قد فعلت ذلك في الغالب، ولكان ذلك أمراً شنيعاً كذلك ولكنه أكثر خطورة من وجهة نظر صحية. ولكننا لا نستطيع لوم سكان لندن المفجوعين لأنهم لم يفكروا بذلك. وعلى أي حال، كان مصير غربان لندن مشابهاً لمصير الذئاب والعديد من الحيوانات الأخرى في القرن الثاني عشر، فقد أصبحت عرضة للإبادة والتعاطف في آن معاً.

في عام ١٦٦٦، كانت الغربان والغربان السوداء تتصرف بشكل أو بآخر كما فعلت دائماً، وكان الناس قبيل العصر الحديث يتقبلون وجودها بشكل عام على أنه من فعل الأقدار. ولكن بحلول أواخر القرن السابع عشر





صورة لسيد الغربان
الجليل في برج لندن

صورة لسيد الغربان الجليل وهو يُطعم أحد غربان برج لندن



تم التخلي عن الرزانة التقليدية وبدلاً من النظر إلى الغربان على أنها تمثل الأقدار، أصبح الناس ينظرون اليها، وخاصة البريطانيين، على أنها تتحدى سيادة البشر. وأصبحت الغربان البرية خائنة للعالم المتمدن وتم اصطيادها بكثافة أكثر في القارة الاوروبية في بلدان مثل فرنسا وألمانيا والتي اختفى فيها المنظور التقليدي للغربان منذ وقت طويل. كانت الغربان في العصور السابقة منيعة ضد الأسلحة البشرية، ولكن بفعل التطور المستمر في صناعة الأسلحة النارية تمكن الناس في العديد من المجتمعات من إبادة الغربان عملياً. وأصبحت رياضة صيد الغربان في الريف الأمريكي شائعة لتمضية الوقت على الرغم من أنَّ الناس اعتبروا لحم الغرابِ كريه الطعم.

ومع ذلك كله، لم تكن الغرابيات مهددة فعلاً بالانقراض وربما قامت بتوسيع مجالها في بعض المناطق، وأصبحت الغربان السوداء خجولة أكثر حول البشر ونشدت الملجأ في الجروف والغابات البعيدة، ومن بقي منها في التجمعات المدينية الرئيسية بنى أعشاشه في أعالي الأبنية حيث من النادر رؤيتها. أما بالنسبة للغربان، فقد استمرت بالاعتماد على النفايات في المناطق المتمدنة وتكاثرت بوفرة دفعت الناس للتخلي عن أي مطمح جدي لإبادتها، على الرغم من جميع أسلحتهم والسموم التي يمتلكونها.

وحتى يومنا هذا، يستمر تقدير معين للغربان، يكاد يقارب حدود



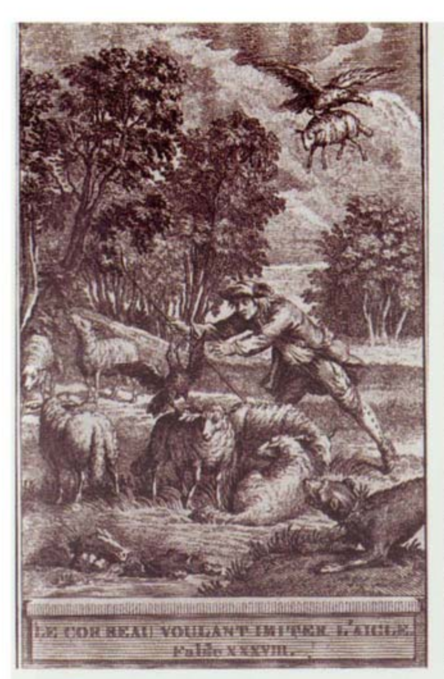
هذه صورة من مطبوعات عن القصص الخرافية تعود لمنتصف القرن الثامن عشر كتبها جان دو لافونتين[1] وهي تعرض معركة في الذكاء ينال فيها الغراب من الثعلب.

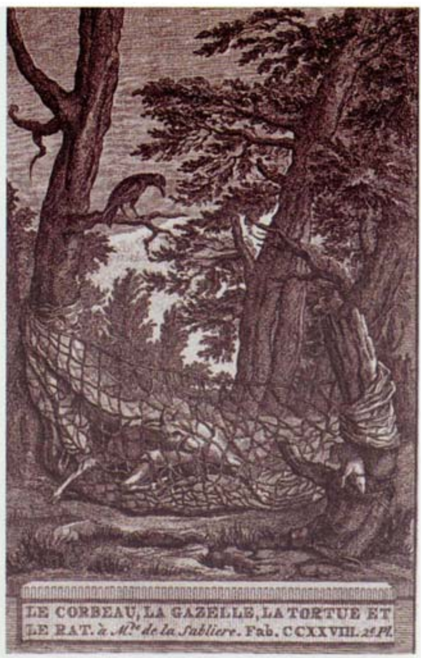
(١) شاعر وكاتب قصص خرافية فرنسي (١٦٢١. ١٦٩٥م)

التبجيل في بعض الأحيان، في الريف الانكليزي. وكتب القس وعالم الطبيعة جيلبرت وايت[1] في نهاية القرن الثامن عشر بتأثر عن الغرابيات في كتابه التاريخ الطبيعي لسلبورن[2] The Natural History of Selborne. يتحدث وايت في كتابه عن عائلات من الغربان السوداء أقامت أعشاشها عالياً فوق نتوء على شجرة بلوط ضخمة على طرف المدينة منذ زمن طويل لا أحد يستطيع أن يتذكره، وحاول الفتية لأجيال عديدة تسلق تلك الشجرة بلا جدوى ثم استسلموا لصعوبة المهمة. أخيراً، قُطعت شجرة البلوط لتوفير الخشب لبناء جسر لندن، وتم إحداث فتحة في الجذع ووضعت فيها أوتاد، ثم تم إضعاف الخشب بضربات مطرقة قوية حتى بدأ الجذع بالسقوط في النهاية.

(١) ١٧٢٠- ١٧٩٣ م.

(٢) سلبورن هي قرية في شرق مقاطعة هامبشاير في انكلترا.





هذه الصورة تمثل محاولات الغراب الفاشلة لتقليد النسر في صورة من القصص الخرافية لجان دو لافونتين.

صورة أخرى من القصص الخرافية للافونتين يتصرف فيها الغراب كحارس للحيوانات الأخرى ويساعد في إنقاذها من الأفخاخ.

ولكن الغراب الأم رفضت أن تترك عشها وصغارها فألقيت إلى الأرض وقُتلت. وعلّق القس وايت والذي كان يراقب من مكان قريب جداً ولم يكن يميل أبداً إلى المشاهد العاطفية (إن عاطفتها الأمومية تستحق مصيراً أفضل) (١) ويمكن أن يراها القراء كشهيدة الصناعة والتجارة.

وفي الواقع، ازداد افتتان الناس بالحيوانات في الوقت الذي أصبحوا فيه بعيدين عن الطبيعة، وتوالى ظهور الأساطير المتحضرة حول الحيوانات في القرنين الثامن والتاسع عشر بدءاً من الديكة الرومية التي تتحدث العربية بطلاقة وانتهاء بالكلاب التي تحل جرائم القتل.

وهناك أيضاً قصة غراب الملكة ماري أنطوانيت، والتي يمكن تصديقها إلى حد ما. تبدأ القصة بينما كانت ملكة فرنسا تتناول الفطور في أكتوبر. تشرين الأول من عام ١٧٨٥ على جزيرة تابعة لقصر فرساي الملكي، وكانت



قد غمست للتو قطعة من البسكويت في فنجان من الحليب عندما حط غراب ونظر إليها وبدأ يخفق جناحية بلطف. وعلى الرغم من أنها اندهشت في البداية إلا أن الملكة أعطت الغراب ما بقي من قطعة البسكويت، وبدأت بينهما صداقة. كانت الملكة تطعم الغراب كل صباح ثم يتبعها الغراب من شجرة إلى أخرى وهي تتنزه في المكان. وعندما قُطع رأس ماري أنطوانيت في عام ١٧٩٣ بدا أن الغراب قد اختفى لعدة سنوات. ولكن في عام ١٨١٠ بينما كانت ماري لويس النمساوية التي تزوجت مؤخراً من نابليون، تتناول إفطارها على نفس الجزيرة عندما لمحت الغراب، والذي كان يحلق فوق جناحها وهو ينعب بصوت مرتفع، على أمل أن يشاركها طعامها كما يبدو. وعندما أخبرت ماري لويس نابليون بأمر الغراب، ظنّ أن هذا نذير حظ سيئ وأمرها بالرحيل عن فرساي فوراً. وفعلاً سرعان ما تبعهما الحظ السيئ، على الرغم من أنه أصاب الامبراطور أكثر من زوجته. ففي عام ١٨١٦ وبعد أن عانى نابليون من هزيمته المشؤومة في واترلو ونفي إلى جزيرة سانت هيلانة، قامت ماري لويس بزيارة تلك الجزيرة في فرساي برفقة والدها حيث سمعت فجأة نداء ونظرت إلى الأعلى لترى الغراب وصرخت مذعورة. لكن البستاني والخدم كانوا يعتبرون الغراب رفيقاً قديماً وقاموا بإطعام الطائر بقية حياته وكان الزوار يأتون من أمكنة بعيدة ليروا صديق ماري أنطوانيت.

ليس تصرف الطائر هو ما يثير الشكوك حول هذه القصة بل تصرف البشر، فمن الصعب ملاحظة الغربان المنفردة إن لم تكن غراباً، وخاصة عن بعد، فكيف يستطيع أي كان أن يكون متأكداً من أنه هو نفس الغراب الذي اقترب من ماري أنطوانيت وماري لويس وآخرين. أليس من الممكن أن يكونا غرابين أو حتى عدة غربان مختلفة. ومهما كانت الحالة، فإن هذه القصة توضح كيف تعود الخرافات بقوة في أوقات الأزمات. وقد يخيف نداء الغراب، والذي كان يعتبر فيما مضى طائراً مشؤوماً، حتى شخصاً براجماتياً مثل نابليون.وصف العديد من الكتّاب في القرن التاسع عشر، بمن فيهم علماء طبيعة مهمون، الحيوانات بتعبيرات مجسمة تشابه في تطرفها، على

على الصفحة المقابلة: لوحة بعنوان Don Manuel Osorio Manrique de Zuñiga للفنان فرانسيكو غويا[1] (١٧٨٦-١٧٨٨) تعرض موهبة هذا الغراب الرسول والقطط والطيور المغردة المسجونة في القفص وجميعها محتجزة ضمن مجتمع بشري.

(١) رسام إسباني يعتبر من آخر الأساتذة القدامى في فن الرسم (١٧٤٦-١٨٢٨ م)



تستفيد الغربان من جهود الانسان في المشهد المبدئي لما وراء المدينة في لوحة كاسبر دايفيد فريدريك[1]، التل والحقل المحروث بقرب دريسدن[2] Hill and Ploughed Field near Dresden والتي رسمها بين عامي (١٨٢٤-١٨٢٥).

الأقل، تلك التي استعملها من كتبوا عن الحيوانات في العصور الوسطى. حيث كتب أحد هواة الطبيعة في بدايات القرن التاسع عشر:

يُضرب المثل بالتنظيم الذي تمتلكه غربان الروك Rook وعلى هؤلاء أن يعترفوا بفضل الغربان من أجل الموهبة نفسها التي شهدت إجراءات محكمة الغربان. هذه الإجراءات، والتي تبدو في بعض نواحيها مشابهة لجلسات المحاكم السرية كما تم تمثيل ترتيبها في ألمانيا، حيث كانت تُعقد عادة في أماكن برية غير مطروقة وفي أيام الآحاد الضبابية(٢).

لم يكن الناس في ذلك العصر، كما هو الحال ربما في عصرنا الحالي، بحاجة إلى البحث في الماضي عن أساطير مشرقة، في الوقت الذي توجد فيه قصص خيالية مشرقة معاصرة. لكنَّ الشعراء الرومانسيين في ذلك الوقت كانوا يشعرون بالخشية والرعب والتهديد الذي يشكله العلم المتطور بالنسبة لهم، وقد أخطأوا بشعورهم بالخوف من أن تقوم العقلانية بإزالة قوة الخيال البشري.

وقد يكون خير مثال على الرومانسية الحكايات الخرافية للأخوين

(١) رسام المناظر الطبيعية الالماني في القرن التاسع عشر (١٧٧٤-١٨٤٠ م)

(٢) مدينة ألمانية تقع في وادٍ على نهر الإلب

جاكوب وويلهلم جريم، والتي نشر منها سبعة إصدارات بين عامي ١٨١٢ و١٨٥٦، وتبوأتْ المرتبة الثانية بعد الانجيل من حيث سعة الانتشار في ألمانيا وربما في العالم الغربي. قام الأخوان بجمع هذه القصص، خاصة جاكوب، من المصادر الشفهية وأعادا كتابتها، ويلهلم تحديداً، لأسباب تجارية وفنية في آن واحد، وهي مزيج من العلم والفن، يجمع الأفكار القديمة والعاطفة الشعبية، والبراءة والاستغلال. وأيضاً فقد استعانا كثيراً بخيال الجميع تقريباً بدءاً من الأطفال الصغار وحتى أكثر الباحثين ثقافة.

تجمع قصة الأخوين جريم (جون المخلص) Faithful John بين أشدّ الحكايات قدماً وبين أشدّها تمثلاً بالعصر الفيكتوري. وهي تبدأ بفتى شاب يخرج من عالم الطفولة الوافر الحماية، وهو عالم لم يكن موجوداً قبل بدايات العصر الحديث. حيث يوجه الملك المحتضر خادمه المخلص للاهتمام بولده. وأخبر الملك جون بأن يُري الأمير كل شيء في القلعة



لم يرد ذكر للغراب في حكاية الأخوين غريم الخرافية (هانسل وجريتل) ولكن الرسام فريتز فيليب شميدت أضاف هذا الطائر إلى الصورة في أوائل القرن العشرين ليكون مرافق الساحرة القاتم.

باستثناء غرفة واحدة تحتوي على لوحة (أميرة السقف الذهبي) the Princess of the Golden Roof. وبالطبع فإن الملك الشاب أصر على دخول الغرفة ورأى اللوحة التي تُمثل الاميرة ووقع في حبها. بعدها يقوم جون والملك باختطاف الأميرة في مغامرة تعود ربما للروايات الشفهية التي تحكي عن غارات الفايكنغ، ومع ذلك فإن القصة مليئة بأحاديث وردية بأن الاختطاف تم بدافع الحب وكانت الأميرة سعيدة مع الشاب وجرى وضع خطط لحفل الزفاف.

لكن المرحلة التالية من القصة غامضة بشكل خاص، حيث يكون جون المخلص جالساً عند مقدمة السفينة وهو يعزف الموسيقى عندما تقترب ثلاثة غربان منه. وتبدأ الطيور بالحديث إلى بعضها، وفقط جون. مثل الشامان. يستطيع فهم ما تقوله. وتنبأت الغربان أن الأميرة والملك الشاب في خطر، ولكن لا يزال من الممكن إنقاذهما، ولكن أياً كان من سيقوم بذلك فعليه ألا يفسر أفعاله للملك وإلا سيتحول إلى حجارة.

وعندما وصلت السفينة إلى الأرض، قدم حصان يخّب نحو الملك، وكان جون يعرف من سماعه لحديث الغربان أن الحصان كان على وشك أن يحمل جلالته عالياً في الهواء حيث لن يُرى الملك بعدها أبداً. وكما قالت الغربان، قفز جون على الحصان وتناول مسدساً من قرابه وأردى الحصان قتيلاً. يشبه هذا الحادث تقديم الحصان كأضحية، وهو طقس كان يؤدى بين الأقوام القبلية في الدائرة القطبية الشمالية وكذلك بين الأقوام الهندو أوروبية من بريطانيا وصولاً إلى الهند. لقد كان ذلك طقساً ستقوم بموجبه روح الحصان بمرافقة الشامان في رحلته إلى العالم الآخر. وتشبه الغربان في هذه القصة الإلهة بابدا عند السلت في هيئتها الثلاثية، والعديد من الآلهة من أقصى الشمال. وما بقي من القصة يمكن أن يُقرأ في بعض الأحيان كموعظة ولاء من العصر الفيكتوري، ولكنها مليئة أيضاً بإشارات واضحة إلى الطقوس القديمة والأضحيات البشرية.

اعتبر الأخوان جريم مجموعتهما من الأساطير الألمانية أكثر أهمية من



تعكس هذه الصورة للرسام والتر كراين[1]، لقصة (جون المخلص) Faithful John في النسخة الانكليزية لقصص الأخوين جريم والتي صدرت في عام ١٨٨٦، المزيج المنتقى من السحر القديم والواقعية المطلقة والعاطفية السائدة في الحكاية الأصلية.

(١) رسام انكليزي (١٨٤٥ ١٩١٥)

الحكايات الخرافية، على اعتبار أن الأساطير فقط تُصدق حرفياً. ومن بين أشهرها الحكاية التي تقول إن الامبراطور فريدريك بارباروسا وفرسانه لم يموتوا ولكنهم نائمون في جبل كيفهاوسين Kyffhausen إلى أن يستدعيهم الرب، وعندما سيستيقظ فريدريك أخيراً سيعلّق درعه على شجرة ميتة. عندها ستزهر هذه الشجرة وسيبدأ عصر جديد مشرق. وفي أحد الأيام يقترب راعٍ من الجبل، وينهض الامبراطور، وقد التفت لحيته حول الطاولة التي كان يَجلس عليها عندما أغفى، ويسأل: (ألا تزال الغربان تُحلق حول الجبل في دوائر؟) وعندما يسمع أن الغربان لا تزال تُحلق هناك، يعود فريدريك للنوم مئة عام أخرى (٣). ويمثل تحليق الغربان في هذه القصة الوقت، كما يمثل دائرة الحياة والموت، والتي ستغلق عند نهاية العالم.





في هذه اللوحة الساخرة من عام ١٨٦٦ للرسام ج.ج. جراندفيل، يظهر غراب على سرير الموت محاطاً بعائلته وأصدقائه عالياً بين الميازيب الناتئة لكاتدرائية ستراسبورغ.

هذه اللوحة الساخرة للرسام ج.ج. جراندفيل والتي تعود لعام ١٨٦٦، تُظهر شاباً يدرس الطب وهو يشبه الغربان البرية في خجله وعزلته.

ولعل الحكايات القادمة من الدول الأقل تطوراً في الصناعة كانت أكثر بدائية، ففي الحكايات الخرافية الروسية والتي جمعها ألكساندر أفاناسيف في منتصف القرن التاسع عشر، كانت الغربان مليئة بسحر قوي. وفي إحدى الحكايات، يقول مزارع عجوز «لو أن الشمس تمدني بالدفء، والقمر يزودني بالنور والغراب يساعدني في جمع المحصول (البرغل)، فسأزوج ابنتي الكبرى للشمس، والثانية للقمر، والصغرى للغراب»، وتمت إجابة طلبه وكان الرجل وفياً لما قاله. وفيما بعد قام المزارع بزيارة بناته الثلاث اللواتي يعشن مع أزواجهن، ولكن عند زيارته للغراب سقط من السماء ومات.[٤] وفي حكاية كهذه مليئة بالتعابير الكونية، لن تكون المقارنة بين الغراب الذي يلتقط المحصول (البرغل) بالظلمة التي تلتهم النجوم بعيدة المنال. وفي حكاية أخرى من مجموعة أفاناسيف وتسمى (البطة البيضاء The White Duck»)، تعيد غربان العقعق الأطفال الموتى إلى الحياة بإحضارها ماء الكلام وماء الحياة.



قد يتوقع المرء فعلاً أن تكون الغربان على دراية واسعة بعلم التشريح لكثرة ما نقرت الأجساد الميتة، كما توحي هذه اللوحة الحجرية والتي تعود لعام ١٨٢٩ للرسام ج.ج. غراندفيل.

في العديد من حكايات العصر الحديث، كانت الغربان والغربان السوداء تذكر بالموروث القديم الذي كاد يزول ولكنه لم يُنس تماماً. فالأحداث في الرواية التاريخية بارنابي رودج Barnaby Rudge والتي كتبها تشارلز ديكنز في عام ١٨٤١، تدور في الثمانينات من القرن الثامن عشر، حيث يرافق الشخصية الرئيسية، والتي تحمل الرواية اسمها، غراب أليف يُدعى تشيب. كان بارنابي ذو طبيعة طيبة وغير معقدة إلى درجة الحماقة، وكان الغراب تذكيراً دائماً بالقوى الشريرة التي لم يكن يستطيع رؤيتها. وكان الغراب يقول كلمات تكاد تكون تافهة ولكنها غالباً ما تحمل تنبؤات، وفي بعض الأحيان ادعى الغراب أنه الشيطان بنفسه.

في عام ١٨٤٥، وبعد مرور أربع سنوات على نشر رواية بارنابي رودج Barnaby Rudge (للكاتب تشارلز ديكنز)، قام إدغار آلان بو بنشر قصيدته (الغراب) The Ravenللمرة الأولى. وهذه القصيدة أصبحت عادة من أوائل القصائد الجدّية التي يقرأها الأطفال في المدرسة، وهي بالتأكيد القصيدة التي يتذكرها معظمهم. ولكن القليلين هم من يتوقفوا

(عد إلى العاصفة ....) هكذا يخاطب المتحدث الغراب في قصيدة (الغراب) «The Raven» للشاعر إدغار آلان بو والتي تمثلها هذه الصورة للرسام جوستاف دوري[1] في عام ١٨٨٣.



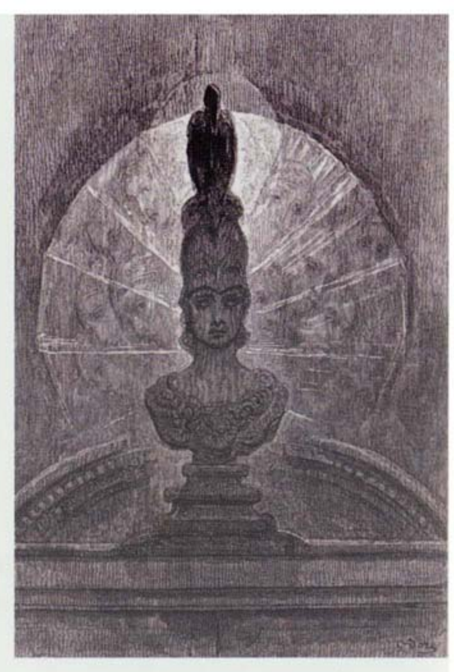
(١) رسام ونحات فرنسي (١٨٣٢-١٨٨٣ م)

ليفكروا في المعنى الحقيقي لهذه القصيدة، حيث أن أكثر ما يرسخ في ذاكرة الجميع هي اللازمة التي تقول. (وقال الغراب، أبداً بعد اليوم (أبداً)) .

بالنسبة إلى غالبية القراء، تبدو الإيقاعات الشعرية في هذه القصيدة ملحّة جداً وتبدو الصور عاطفية جداً (ميلودراماتيكية)، حتى أن المعنى يكاد يبدو متنافراً. وفي القصيدة يزور غراب المتحدث في وقت متأخر من الليل:

ثم يُحيلُ ذاكَ الطيرُ الأبنوسي
وهمي الحزين الى ابتسامة،
بأدب عابس رصين
ارتداه مُحياه،
«وإن يكُن رأسك مقصوصاً حلّيقاً.. وإن يكُن»
قلتُ «الفنُ ليس جباناً أبداً،





(وجثم فوق تمثال بالاس[1] تماماً فوق باب غرفتي....) التصوير للرسام جوستاف دوري عن قصيدة (الغراب) The Raven لإدغار آلان بو.

يا هذا الغرابُ الشبحيّ المتجهم،
يا من يتسكع من شاطئ الليل،
أخبرني ما اسمُ جلالتك
هُناك على شاطئ الليل البلوتوني!
وقال الغُراب «أبداً، ليس بعد ذلك» (٥).

ثم يوجّه المتكلّم الحديث والأسئلة، التي تزداد غرابة باطراد، ويجيب عنها الغراب بالكلمات المنذرة نفسها.

وتكاد القصيدة نفسها تبدو جنونية في تركيبتها، ويصف المؤلف طريقته في الكتابة في مقالة قصيرة بعنوان (فلسفة الإنشاء) The Philosophy of Composition بطريقة تحليل انفصالية تكاد تبدو مرضيّة. ومثل أغلب الشعراء الرومانسيين، كان إدغار آلان بو مهتماً بالمشاعر الخالصة، وكانت

(١) اسم شقيقة أثينا الالهة اليونانية والتي قتلتها أثينا مصادفة وبهذا أضافت اسم بالاس الى اسمها اثينا فأصبحت تدعى أحياناً بالاس أثينا.



أصبحت قصيدة إدغار آلان بو (الغراب) The Raven مفضلة بشكل دائم مع الصور المرفقة بها. هذه اللوحة عن الطائر رسمها إدموند دولاك[1].

(١) رسام فرنسي (١٨٨٢-١٩٥٣م)

العاطفة التي تعرضت لكبح وسيطرة العقل هي مفهومه الفني. واستطاع ربط الأصوات والصور الغريبة للقصيدة في رواية محكمة، بل يمكننا القول إنها ملّفقة.

يهرب غراب أليف تم تلقينه أن يقول كلمة واحدة من مالكه، وتجبره العاصفة على اللجوء إلى غرفة طالب لا تزال مضاءة في منتصف الليل. كان الشاب منكباً على قراءة كتاب معقد وهو يفكر في موت حبيبته، عندما طار الغراب إلى الداخل وجثم على تمثال بالاس أثينا، وبدأ الطالب بتوجيه أسئلة حول الحياة والموت إلى الطائر، والذي كان يجيب بعبارة واحدة (أبداً ليس بعد الآن)، مما أصاب الطالب باضطراب شديد فأمر الغراب بالمغادرة ولكنه بقي في مكانه، مثل معاناته الحزينة.

إنّ وصف إدغار آلان بو بعناية فائقة بالتفاصيل، جديرة بلص بنوك، كيف اختار أن يجعل من موت امرأة جميلة أكثر المواضيع شجناً وكيف انه عمّق كآبة المزاج باستخدام الأدوات الشعرية، مثل اللازمة، وقد اختار كلمة «nevermore» (أبداً، ليس بعد الآن) لخصائصها الرنّانة وقرر أن تكرارها الدائم يجب أن يأتي على لسان حيوان، وقد أراد استخدام ببغاء في البداية ولكن استقر رأيه على الغراب لشهرته المرتبطة بالنبوءات.



صورة مأخوذة من مقالة قصيرة منشورة في مجلة من عام ١٨٨٠، حيث يبدو الغراب متأملاً لقبر إدغار آلان بو.

تحتوي هذه اللوحة للفنان بول غوغان[١] والتي تعود لعام ١٨٩١، وتصور الكاتب ستيفان مالارميه،[٢] على غراب، على اعتبار أن مالارميه هو من قام بترجمة قصيدة إدغار آلان بو إلى الفرنسية.

(١) يوجين هنري بول غوغان (١٨٤٨. ١٩٠٣ م) رسام رائد للمرحلة الفنية ما بعد الانطباعية.

(٢) اسمه الحقيقي ايتين مالارميه (١٨٤٢ -١٨٩٢ م) شاعر فرنسي رمزي كبير، ألهمت أعماله العديد من المدارس الفنية الثورية في بدايات القرن العشرين.

شكك الباحثون في أن إدغار آلان بو قد تعمد الكتابة بهذه الطريقة، كما ادعى، وكتب جيمس راسل لويل في كتابه خرافات للنقاد «Fable for Critics» في نهاية القرن التاسع عشر:

ها قد أتى بو، يرافقه غرابه، مثل بارنبي رودج،
ثلاثة أخماسه عبقري وخمساه هراء محض،
الذي يتحدث ككتاب من أوزان الشعر وبحوره،
بطريقة تجبر أصحاب الفطرة السليمة على لعن أوزانه
والذي كتب بعض الأمور كأفضل ما تكون،
ولكن على ما يبدو أن القلب سحقه نير العقل ...(٦)

وأصبح الغراب منذ ذلك الحين رمزاً لإدغار آلان بو، وعادة ما يتم تصويره والطائر جاثم على كتفه أو إلى جانبه، ولعل الأكثر أهمية أن الغراب أصبح حتى يومنا هذا ميزة رئيسية في قصص القوطيين المرعبة.

إذا كانت الثقافة العالية قد أكدت على الجوانب المظلمة والتنبؤية للغرابيات، فإن الثقافات الشعبية عادة ما تؤكد على مرحها، مما يوصلنا إلى تاريخ الغراب جيم Jim Crow وهو اسم يرتبط بالفصل العنصري، وخاصة في الولايات المتحدة، ولا يلاحظ الكثيرون ذلك، ولكنه كان رمزاً في الثقافة الشعبية قبل وقت طويل من نظام التمييز العنصري.

في الصفحة المقابلة: العديد من حكايات إيسوب الخرافية، وخاصة حكاية غراب الزيتون الذي أراد أن يصبح طاووساً، وقد تم استخدامها كتعليقات سياسية في العالم الحديث، ربما مثلما فعل ايسوب تماماً.

ولعل أصوله تعود، على الأقل، إلى غراب الزيتون في الخرافات التقليدية المنسوبة لإيسوب، والذي ارتدى الريش الملون في محاولته الفاشلة لتقليد الطاووس. وغالباً ما كانت هذه القصة تحكى للناس الذين يطمحون إلى الارتقاء إلى ما فوق موقعهم الاجتماعي. وفي المجتمعات الأرستقراطية كان غراب الزيتون رمزاً لمن يقوم بتقليد أساليب النبلاء من عامة الناس.

وغالباً ما كانت هذه القصة تُروى في القرن التاسع عشر على اعتبار ان التمايز في الطبقات والثروة والجنسية في المجتمعات الأورو- أمريكية قد أصبح أكثر تعقيداً. ويمثل غراب الزيتون أي نوع من المدعين الذين حاولوا دخول قطاع محرّم عليهم من المجتمع، كما في أصل الخرافة لدى

HARPER'S WEEKLY.

JOURNAL OF CIVILIZATION.

Vol. XXV.—No. 1285. | FOR THE WEEK ENDING AUGUST 6, 1881. | TEN CENTS A COPY.



BORROWED PLUMES—MR. JACKDAW CONKLING.

Eagle. "Perhaps you would like to pluck me."

PLUCKED OF HIS PLUMAGE (OR PATRONAGE).
THE JACKDAW IS AGAIN NOTHING BUT A JACKDAW.

ايسوب، ولكن محاولاته في بعض الأحيان كانت تكلل بالنجاح. وأحد هذه الأمثلة في القصيدة المشهورة للشاعر آر.اتش. بارهام. غراب ريميس. «The Jackdaw of Rheims» والتي كتبها باسمه المستعار (الأب جون انجولدسبي). كان بارهام رجل دين انكليزياً، أصبح في النهاية مرتلاً هامشياً في كنيسة أوكسفورد الملكية، ومثل الكثيرين من البروتستنت الآخرين في ذلك الوقت، وجد الطقوس الكاثوليكية الرومانية جذابة الجمال وغريبة في آن معاً. ولعل غراب الزيتون في القصة يمثل أحلام يقظة بارهام بأن يصبح بابوياً، مثل ذاته الأخرى انجولدسبي،

وعلى أية حال، تحكي القصيدة عن غراب زيتون مزعج اعتاد التسكع حول احتفاليات الكنيسة، يدفعه إلى ذلك الطعام والثياب الجميلة، وفي أحد



في هذا النموذج الفرنسي للدعاية المضادة لألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، يُمثل القرد غراب الزيتون، مضرب المثل، الذي أراد أن يصبح طاووساً.



تبدو غربان العقعق، وهي من أقارب الغربان، كرموز لهدوء الريف، في هذه اللوحة للفنان كلود مونيه، Magpie، Snow Effect، Outskirts of Honfleur (غربان العقعق، تأثير الثلج، ضواحي هونفلور ١٩٦٨- ١٩٦٩)

الأيام، وبينما كان الجميع يستمعون للموسيقا المقدسة التي يعزفها الكورس، هرب الغراب بعيداً وهو يحمل خاتم الكاردينال. وقام الرهبان بالبحث طوال الليل حتى استطاعوا أخيراً العثور على الخاتم في عش الغراب، ولدى اكتشاف أمره، شعر الغراب بالخزي الشديد حتى أنه تخلى عن أساليبه الملتوية وعاش بقية حياته كنموذج يُحتذى به. وحضر جميع الصلوات التي تمت إقامتها ووبّخ بلطف كل من كذب أو شتم أو غفا أثناء القُداس. وأخيراً ولدى وفاته طُوِّب الغراب قديساً. وتنتهي القصيدة على الشكل التالي:

عندما تكون الكلمات أضعف من أن ترسم فضائله
قرر المجتمعون أن يطوبوه قديساً!
وكما تعلمون، فعند تطويب قديس جديد أو تنصيب بابا
جرت العادة في روما بمنح أسماء جديدة
وهكذا طوّبوه باسم جيم الغراب !(٧)

نُشرت القصيدة لأول مرة في عام ١٨٣٧، ثم أصبحت فيما بعد جزءاً من المجموعة الهزلية الشعبية لبارهام والمسماة أساطير انغولدسبي، أو الأفراح والعجائب The Ingoldsby Legends، Mirth and Marvels، وهي تحتوي، على حد علمي، على أول ظهور مطبوع لاسم جيم الغراب «Jim Crow». ويبدو اللقب هنا وكأنه ايحاء بوجود غراب مجهول، مثل جون دو



لوحة (الغراب) مرسومة بالفحم للفنان أودوليون ريدون[1]، حيث يجعل هذا الرسام الفرنسي الرمزي الغراب يبدو وكأنه موجود في عالم غامض بين الحلم والحقيقة.

(١) رسام فرنسي رمزي (١٨٤٠-١٩١٦م)

(المجهول) ولكن بريش أسود.

وبعد حوالي العقد على ظهور قصيدة غراب ريمس The Jackdaw of Rheims، أصبح جيم الغراب رمزاً أساسياً في العروض الشعرية التي

أصبحت شائعة في الولايات المتحدة. وهذه العروض تألفت من مسرحيات هزلية وتمثيليات موسيقية يؤديها رجال بيض بوجوه سوداء. بمعنى أنهم يضعون لوناً اسود على وجوههم في محاولة لتقليد السود. ولا يحتاج الأمر للقول إنّ هذه العروض كانت عنصرية بشكل صارخ وأنها صورت السود في قوالب أشخاص نمطيين عديمي الحيلة وكسولين وفاسقين وجهلة ومدمنين على الكحول ومخادعين.

وعلى الرغم من ذلك، يتردد بعض المؤرخين السود حتى اليوم بإدانة هذه العروض بوضوح، على اعتبار أن ازدراء الزنوج كان ممزوجاً بالإعجاب بطريقة ماكرة، حيث منح استخدام الوجه الأسود الرجل الأبيض الفرصة ليُظهر خيالاته السرية والتي كانت ستدينها النظم البيوريتانية في تلك الأيام.

جسّد جيم الغراب العبد اللا أخلاقي والخالي من الهموم، ويعمل في الإسطبلات ويدندن لنفسه. وكان بالتأكيد مثل غراب الزيتون في قصة ايسوب، مدعيّاً، على الرغم من أنه من الصعوبة بمكان أن تقول كيف كان ذلك تماماً. هل كان جيم الغراب شخصاً أبيض يحاول أن يكون أسود؟ أو شخصاً أسود يحاول أن يكون أبيض؟ وعلى أية حال، أصبح الاسم لقباً للفصل بالقوة بين البيض والسود، بعد مرور عقود على الحرب الأهلية الأمريكية. وإذا كان الاسم (جيم) يرمز إلى الكائن البشري المتحضر نسبياً (ربما الرجل الأبيض)، فإن (الغراب) كان النظير الحيواني (الرجل الأسود)، وهذا يشبه قليلاً ما سماه أتباع فرويد فيما بعد بـ(الهو) و(الأنا). حاولت العروض الغنائية أن تجمع هذه المبادئ ولو بطريقة فظة ومتعصبة، وحاولت قوانين الفصل فيما بعد أن تبعدها عن بعضها. تمتلك الغربان أكثر من مجرد بشرة قاتمة لتتم تزكيتها كشعار للأمريكيين من أصل افريقي، حيث يمكن وبسهولة أن تكون اغاظاً لهم بسبب مرحها وعدم القدرة على توقع تصرفاتها بالطريقة نفسها التي يتصرف بها السود.

ولكن إذا كانت العروض الغنائية قد سخرت من مفهوم قرب الغربان

للطبيعة، وبالتالي الأمريكين من أصل إفريقي، فإن الفنانين المبدعين غالباً ما احتفوا بها. وعلى العموم مثلما قام بو بإبداع الصورة الشعبية للغراب، فقد ساعد الرسام الهولندي فينسينت فان غوخ في تشكيل صورة الغراب آكل الجيف في الثقافة الفنية.

عندما يفكر الناس في الغربان في حقل الذرة، فإن أول ما يخطر في بالهم هو لوحات فان غوخ، ولعل أكثرها تعلقاً بالذاكرة هو العمل الذي يحمل العنوان المتعارف عليه حقول القمح مع الغربان تحت السماء المتوعدة Wheatfield under Threatening Skies with Crows، وهو أحد آخر اللوحات التي أنتجها الرسام في صيف عام ١٨٩٠ قبل انتحاره. وهي تُظهر الأقطار الأفقية الرائعة الأسلوب للغربان خلال تحليقها بأجنحة مبسوطة، مما يتباين مع سنابل القمح العمودية، وتبدو الغربان وهي تطير مبتعدة عن الحقل لتجد لها ملجأً من العاصفة القادمة.

وعلى الرغم من شهرة فان غوخ كعبقري رومانسي، إلا أن رسائله البالغة الفصاحة تُظهر أنه كان يخطط للوحاته بوعي وتعمد تام. وغالباً ما كان يذكر حقول القمح والتي كان ترمز لقوت المعيشة، ولكنه لم يذكر الغربان. تعاطف فان غوخ مع المزارعين في نضالهم للحصول على قوت يومهم، ومحاولتهم حصاد الحبوب بغض النظر عن تقلبات الطقس.

وقبل وفاته بقليل كتب فان غوخ إلى شقيقه ثيو وزوجته جوهانا، (هناك حقول قمح شاسعة تحت السماء المتجهمة، ولم أكن في حاجة لأن أبتعد عن طريقي كي أستطيع التعبير عن حزني ووحدتي). وبعد فترة وجيزة كتب لوالدته، (أنا مستغرق تماماً في السهول الواسعة وحقول القمح مقابل التلال واللامحدودة مثل البحر ....)(٨) أحب فان غوخ الطبيعة بعمق، ولكنه أيضاً نظر إليها على أنها خصم دائم للكائنات البشرية، ويمكن للغربان أن تمثل طرفي هذه المعادلة. فمن جهة، فإن الغربان كانت تهديداً مستمراً لحياة العاملين في الزراعة، وفي الوقت نفسه، فإنها مثل المزارعين تبحث عن قوتها في حقول الحبوب.



ومثل الزهور المقطوفة التي كان يحب فان غوخ رسمها، تنتمي الغربان إلى عالم الطبيعة وعالم البشر في آن معاً، وهذا التناغم بين الطبيعة والمجتمع جميل جداً وعابر جداً ويبدو استمراره في رسوماته أكثر صعوبة في القرن العشرين.

تبدو الغربان كأنها قوى الطبيعة المتوعدة في اللوحة الأخيرة للرسام فينسينت فان غوخ حقول القمح مع الغربان تحت السماء المتوعدة Wheatfield under Threatening Skies with Crows (١٨٩٠).

هوامش

١ جيلبرت وايت، Natural History of Selborne، (نيويورك، ١٨٩٠ م)، الصفحة: ٩.

٢ ويليام ستيوارت روز، Apology Addressed to the Traveler›s Club، or Anecdotes of Monkeys، (لندن، ١٨٢٥)، الصفحة: ١٦٨.

٣ جاكوب وويلهلم جريم، The Complete Fairy Tales of the Brother Grim، ترجمة جاك زيبس، (نيويورك، ١٩٨٧)، المجلد الأول، الاسطورة رقم ٢٣.

٤ ألكساندر أفانسيف، Russian Fairy Tales، ترجمة نوربرت جوترمان (نيويورك، ١٩٧٣)، الصفحات / ٥٨٨-٥٨٩.

٥ قصيدة الغراب The Raven»، من ديوان الأزهار الأخيرة: القصائد الرومانسية لإدغار آلان بو وسارة ويتمان Last Flowers: The Romance Poems of Edgar Allan Poe and Sarah Whitman، (بروفيدانس، رود ايلاند، ١٩٨٧)، الصفحة: ٥.

٦ جيمس راسل لويل، خرافات للنقاد، لجيمس راسل لويل. Fable for Critics، by James Russell Lowell; with vignette portraits of authors de guibus fabula narrator مع لوحات تمثيلية، (لندن، ١٨٩٠) الصفحة: ٧٨.

٧ أر. اتش. بارهام (الاسم المستعار توماس انجولدسبي)، أساطير انغلولدسبي، أو الأفراح والعجائب The Ingoldsby Legends، or Mirth and Marvels، (لندن، ١٨٦٦) الصفحة: ١٣٢.

٨ بروس بيرنارد، فينسين بقلمه: مختارات من لوحات ورسومات فان غوخ مع مقتطفات من رسائله (ترجم الرسائل، جوهانا فان غوخ) Vincent by Himself:. Selection of Van Gogh›s Paintings and Drawings Together with Extracts from his Letters letters trans. Johanna Van Gogh (بوسطن، ماساشوستس، ١٩٨٥)، الصفحة: ٢١٤.

7– سيد الغربان

هنا، قالوا، يقبع رعب الفرنسيين
في الفزاعات التي تخيف أطفالنا هكذا
شكسبير في مسرحية «هنري الرابع»، الفصل الأول، المشهد الرابع

مهما كان الهدف من الفزاعات، فهو ليس في الحقيقة إبعاد الغربان عن الحقول، فالفزاعات ملونة ومسلية ولكن الغربان أكثر ذكاءً بكثير من أن تخاف من حزمة من القش، على الأقل ليس لفترة طويلة. إذاً لماذا يستعمل الناس الفزاعات؟

غالباً ما تتعرض حقول المحاصيل للخراب بفعل الجراد وغيره من الحشرات ولكن الغربان أو الغربان السوداء، نادراً ما تفعل ذلك أو لا تفعله أبداً، وهي عادة تفضل التهام الحشرات على الحبوب. إنَّ الغربان تنجذب إلى الحقول بسبب الحشرات أكثر منها بسبب النباتات، وربما تقوم الخدمة التي تؤديها للمزاعين من خلال التهام الآفات الضارة بمحاصيلهم بمثابة تعويض عن وجبات الخضار الخفيفة التى تلتقطها أحياناً أثناء قيامها بذلك. ولكن حتى اليوم، لا يلاحظ العديد من المزارعين ذلك. ورؤية أعداد كبيرة من الغربان تستقر في حقل محروث يمكن أن يشكل إهانة لغريزة ملكية المزارع البدائية، وقد تبدوالغربان من خلال تسكعها العشوائي حول الحقول والتهامها للحبوب كأنها تسخر من عمل المزارع الشاق.

عادة ما يُنظَر إلى الطرائد بشكل على الأقل بنوع من الامتنان والاحترام نظراً للقوت الذي تقدمه، وقد اعتاد سكان الريفً في انكلترا أن يصنعوا الفطائر من غربان الروك Rook مما يفسر لماذا تبدو المناوشات بين غربان الروك والمزارعين ودودة تقريباً. (جلب المهاجرون من انكلتراإلى الولايات المتحدة الامريكية غربان الروك في الستينات من القرن التاسع عشر لتلتهم الآفات الضارة وفي الوقت نفسه تذكرهم بوطنهم السابق). استطاعت ماري



أوغست شينك، كاتب مغمور قضى على أيدي النازيين ومن المغري قراءة لوحة شينك (العذاب) Agony على أنها حدس مسبق حول مصيره.

ويب[1] في رواية Precious Bane التي تتحدث عن الحياة الريفية في انكلترا خلال القرن التاسع عشر، تدوين التقليد القاضي بإخبار غربان الروك بموت مالك المزرعة العجوز بعد أن يكون الوريث الشاب قد نقل الخبر:

أمعنت غربان الروك النظر إليه من أعشاشها، وعندما انتهى كانت هناك جلبة مفاجئة من أجنحتها، وارتدت جميعاً نحو السماء الزرقاء في اجتماع عظيم، كما لو أنها تنظر فيما قيل. ثم عادت بعد فترة، واستقرت بجدية وهدوء شديدين. وبذلك نعلم أنها قررت البقاء. وعبَّر السيد الجديد عن ارتياحه وهو يضيف (أنا شغوف جداً بفطيرة روك)(١)

بالمقارنة، يُعتَبَر لحم الغراب آكل الجيف ولحم الغراب الأمريكي، تقليدياً، غير صالحَين للأكل. وتعني عبارة (أكل غراب) أداء بعض الكفارات الكريهة.

يُرجع علم دراسة أصل الكلمة الشعبية هذا المصطلح إلى حادثة مزعومة في حرب عام ١٨١٢ بين بريطانيا والولايات المتحدة. حيث ضل صياد

(١) شاعرة وروائية رومانسية انكليزية (١٨٨١-١٩٢٧).



هذا الغراب الأمريكي العادي الماكر يجثم على غصن محمل بالفواكه في هذه الصورة التي تعود لأوائل الأربعينات من القرن التاسع عشر للرسام جون جيمس أودوبون[1]. ويظهر وهو ينظر حوله بحذر قبل أن يقوم بسرقة محصول المزارع.

(١) رسام أمريكي من أصل فرنسي (١٧٨٥-١٨٥١)

أمريكي طريقه ودخل إلى الأراضي البريطانية وأصاب غراباً، فاقترب جندي بريطاني لم يُعرف اسمه من الصياد وأبدى إعجابه برمايته وطلب أن يلقي نظرة على مسدسه، وعندما سلمه الصياد سلاحه وجهه الجندي نحوه وأجبر الصياد على أكل لقمة من الغراب.. ولكن الجندي الأحمق أعاد البندقية الى الصياد وعندها أجبره الصياد على أكل الطائر بالكامل. وقام بعض

الطهاة المغامرين بتجربة لحم الغربان الأمريكية ووجدوها لذيذة الطعم، ولعل الترفع عن أكلها هو نتيجة للاستياء الذي كثيراً ما أثارته الغربان.

وعلى أي حال، فإن المزارعين نظروا للغربان في بعض الأحيان، ليس فقط بانزعاج، بل بكراهية. ففي أوائل القرن التاسع عشر كتب عالما الطبيعية ألكسندر ويلسون[1] وتشارلز بونابارت عن الغراب الأمريكي:

إنه يعتبر لصاً متخبطاً، وهو نوع من المتشردين بمعطف أسود، يحوم حول حقول الكادحين ويسمن على جهودهم.. يكرهه المزارع ويشاهده ويلاحقه تقريباً كل من يحمل مسدساً .. ولو لم تمنحه السماء ذكاء وحكمة أكثر من المعتاد، لكان لدينا سبب للاعتقاد أن قبيلته بكاملها (في هذه الأنحاء على الأقل) قد انقرضت منذ زمن (٢).

تم إقرار قانون في بنسلفانيا يقول إنَّ أي شخص أبيض يصيب الغربان في مقتل يجوز له أن يطالب بمكافأة عبر إحضاره لجثث الغربان إلى القاضي المحلي. وذلك المسؤول سيأمر بقطع مناقير الغربان ويرسلها إلى خزانة البلدية، التي ستدفع ثلاثة بنسات عن كل ضحية. وبحلول عام ١٧٥٠ أصبح من عادة المدن على طول الولايات الامريكية الغربية أن تضع جوائز على حياة الغربان. ففي ماساشوستس كان يمكن استبدال غراب ميت مقابل شيلينغ واحد، أي ما يعادل أقل بقليل من دولار واحد بالعملة المعاصرة. وقُدم طلب إلى الجمعية العمومية في بنسلفانيا في عام ١٧٥٤ يطالب فيه الولاية بأن تلزم كل واحد من الرواد الأوائل باصطياد دزينة من الغربان ليستطيع المطالبة بأرض على الحدود. وكان المستوطنون أيضاً يقومون بتفجير الأشجار التي كانت مجاثم معتادة للغربان وفي بعض الأحيان يقتلون الآلاف منها في وقت واحد.

نجحت هذه الجهود المكثفة في انقاص أعداد الغربان في الحقول الأمريكية، ولكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر بدأ المزارعون برؤية عواقب غيابها. أصبحت المحاصيل مهددة بسبب الديدان أكثر بكثير مما كانت مهددة من

---

(١) شاعر ورسام أمريكي من أصل اسكوتلندي (١٧٦٦-١٨١٣).

قبل الطيور، وبدلاً من اصطياد الغربان حاول المزارعون الحد من أضرار الطيور وخاصة في الأوقات المهمة من السنة.

وبمرور الوقت، بدأ العديد من المزارعين في أمريكا بالنظر إلى الغربان بنوع من حس الفكاهة العاجزة، مثلما أظهر أجدادهم البريطانيون نحو غربان الروك من قبل. وغالباً ما تبدو الفزاعات جزءاً مما يُشبه ألعاب الفطنة التي يلعبها الناس مع الغربان، ولعلهم خصومهم الأذكى بين الحيوانات، وليس هدفاً لحرب إبادة شعواء. وفي الحقيقة، لا تقوم الغربان بإيذاء المزارعين بالقدر الذي تخيفهم به، وربما تكون الفزاعات محاولة لرد المجاملة، حيث تعمل أفضل الفزاعات لحوالي أسبوع أو اثنين قبل أن تكتشف الطيور أنها غير مؤذية، والعديد منها لا تقوم بعملها على الاطلاق. وفي معظم الحالات، توفر الفزاعة وقتاً كافياً للمزارع للسماح لأكبر كمية من البذور المنثورة للاستقرار في الأرض.

إن إحدى التقنيات القديمة هي زراعة بذور إضافية على أمل أنها ستنجو من نهب الطيور والحشرات الأخرى. وتقول إحدى الأشعار التي تُغنى عند زراعة البذور والتي تعود إلى عصور الآباء المهاجرين في بدايات ماساشوستس ما يلي:

واحدة لدودة الأرض،
واحدة للغراب،
واحدة للطائر الأسود،
وثلاثة لتنمو.(٣)

وبالمصطلحات الواقعية المتشددة، من المحتمل أن تكون زراعة بذور إضافية أكثر طريقة فعالة لضمان حصاد جيد.

وفي الحقيقة، إن الغربان والفزاعات لديها أمور كثيرة مشتركة، فكلاهما يميل إلى أن يكون مهلهلاً نوعاً ما ومؤذياً قليلاً ويرتبط إلى حد بعيد بالقوى الخارقة. وغالباً ما يظهر كلاهما بتكشيرة دائمة. ولو أن المرء توقف ليفكر في معنى كلمة scarecrow (فزاعة) لوجد أنها تبدو مثل اسم غراب. ولعل

الغراب المخيف scarecrow فعلياً يشبه أمير الغربان؟ وعلى أية حال، فكثيراً ما يتم تمثيل الفزاعات بهذه الطريقة والغربان جاثمة على أذرعها ورؤوسها.

كانت الكلمة الانكليزية scarecrow (الفزاعة) تعني في البداية الشخص الذي يعمل في إبعاد الغربان عن الحقول في أواخر القرون الوسطى، وكان هؤلاء الأشخاص والذين كانوا أيضاً يدعون بالمخيفين «scarers» يركضون نحو الغربان وهم يصرخون ويضربون على المقالي أو يلوحون بالعصي. واستخدم بعضهم أدوات محلية الصنع تُعرف باسم «clappers» (المصافق) تتألف من قطعتين من الخشب تُخاطان معاً بخيط من القنب، وتصدر صوتاً عالياً عندما تهتز. وكان (المخيف) scarer يتجول خلال الحقل وهو يحرك مصفقته على فترات ويغني:

ابتعدي، ابتعدي، ابتعدي أيتها الطيور،
كلي قليلاً من الذرة وعودي في يوم آخر، أيتها الطيور،
طيور كبيرة، طيور صغيرة، حمائم وغربان،
سأرفع صوت مصفقتي وهي ستذهب بعيداً!(٤)

وفي النهاية، فإن لعبة المخيف scarer والطيور كانت تتم بطريقة لا يخسر فيها أي من الطرفين. كان الصبية الصغار يكلفون بمهمة إخافة الطيور ولا بد أن الكثيرين منهم استمتعوا بذلك أكثر من مردود العمل، ففي النهاية كم عدد الأطفال الذين لا يستمتعون بالركض وإثارة الضجة! ومن جهة أخرى، لا بد أن الأطفال المرهفين كانوا ينزعجون إذا طُلب منهم تدمير الأعشاش وقتل الصغار في داخلها. وهناك وصف حيّ لهذه المهنة في بداية رواية «جود المغمور» لمؤلفها توماس هاردي والتي نُشرت لأول مرة في عام ١٨٩٥. حيث يعمل البطل الشاب الذي تحمل الرواية اسمه، بالعمل كمخيف للطيور scarer لدى مزارع محلي في ويسكس، وتقول الرواية:

وقف الصبي تحت كومة القش ... وكان يقوم باستخدام مصفقته أو يصدر جلبة سريعة كل بضع دقائق، ومع كل صفقة يقوم بها كانت الغربان



تبدو الغربان الميتة في هذا التصميم الفخاري لهنود قبيلة ميمبرز Mimbres من نيومكسيكو، وهي مصفوفة على حافة الحقول كتحذير للآخرين من سرقة الحبوب.

ترفع مناقيرها وتنهض مبتعدة بأجنحة متمهلة لامعة مثل دروع البريد، ثم تنعطف عائدة وتنظر إليه بريبة وتهبط لتأكل على مسافة أبعد. واستمر بتحريك مصفقته حتى شعر بالألم يغزو ذراعيه وعميقاً في قلبه شعر بالتعاطف مع رغبات الطيور الممنوعة. وبدت له كأنها تعيش في عالم لا يرغب في وجدها أحد فيه، مثله تماماً. (٥)

وقرر جود أن يدع الطيور تأكل في سلام، ومن أجل ذلك ضربه المزارع ثم قام بطرده.

حتى في أيامنا هذه، لا يزال هذه العمل موجوداً، على الرغم من أن القائمين به مثل أندادهم المصنوعين من القش، يقومون به كنوع من الرياضة والتقاليد أكثر منه بسبب تأثيراته الفعلية. فالفزاعات بالتأكيد تخفف من الرتابة التي تتميز بها حقول الحبوب، حتى قبل ظهور الزراعة المكننة (الألية). وإذا لم تساعد على جعل الحقول اكثر إخافة بالنسبة للغربان فإنها على الأقل ستجعلها أكثر جذباً للبشر.

وما نعتبره فزاعة اليوم هو عبارة عن دمية مصنوعة من الملابس القديمة ومحشوة بالقش، ويُشاع أن هذه الأشكال تكون فعالة أكثر إذا كانت ملابسها

تعود لشخص سبقَ له أنْ اصطاد الطيور في المنطقة، وهذه الفكرة الشعبية، بغض النظر عن صدقها أو كذبها، تثني على ذاكرة الغربان. وإحدى الطرق الشائعة هي تزيين الفزاعة بشرائط تتحرك بفعل الريح، على أمل أن توحي حركتها بوجود شخص حقيقي. وغالباً ما تُوضع قطع من المعدن أو الزجاج اللامع على الفزاعة يكون الهدف منها التقاط أشعة الشمس وإبهار الطيور بالضوء المنعكس منها.

ومن الممارسات الأخرى الشائعة وضع طائر ميت أو اثنين إلى جانب الدمية كتحذير للبقية، وهي تقنية استخدمها روبنسون كروزو، الشخصية الخيالية للكاتب دانييل ديفو. وهي في الحقيقة امتداد لأسلوب قديم في مكافحة الجريمة والتحريض عليها، حيث كانت جثث القراصنة أو الثوار تترك على المشانق أو في أقفاص حديدية كتحذير لكل من تسول له نفسه تحدي قوى القانون والنظام. ومن الممكن أن تكون نظرة الناس للغربان على أنهم

هذه صورة فزاعة في نورث كارولينا، في الثلاثينات من القرن العشرين. ترمز الفزاعات إلى طريقة الحياة التقليدية الريفية في عالم صناعي بازدياد.



لصوص هي ما أعماهم عن عدم فاعلية مثل هذه العروض في حقول الذرة. حيث أن مخلوقات الغابات والحقول تآلفت تماماً مع مشهد الموت. وفي البداية تخاف الغربان السوداء وغيرها من الغربان من منظر أمواتها ولكن على أية حال هذه الأجساد الميتة لن تستمر في البرية لأكثر من يومين قبل أن تجف أو تُؤكل أو تتحلل ببساطة .

وقد يعود استخدام الفزاعات إلى عصور قديمة جداً، حيث من المحتمل أن استخدامها كان بغرض السحر أكثر منه لفائدتها العملية. وأورد أيليان Aelian أن أفراد قبيلة فينيتيٍ التي تعيش على طول ساحل البحر الأدرياتيكي، كانوا يؤدون طقوساً يقومون فيها بتقديم كعك مصنوع بعناية من الشعير والعسل والزيت إلى غربان الزيتون قبل أن يبدأوا عملية البذار. كان أفراد قبيلة فينيتي يعتقدون أنه إذا قبلت الغربان التقدمة فإنهم يستطيعون أن يزرعوا بثقة وإلا فإن الطيور ستأكل البذور الجديدة وتسبب مجاعة. ومن الجائز أن مثل هذا الممارسات الشعائرية كانت تُؤدى على مذبح، ولعلها ترافقتْ مع رموز دينية لم يتم تدوينها.

وربما تنحدر الفزاعات مباشرة من التماثيل الخشبية للإله بريابوس Priapus والتي كان اليونان والرومان يضعونها في الحقول، وبريابوس هو ابن ديونيسيوس إله الخمر وفينوس إلهة الحب، ولكنه كان قبيحاً جداً بالرغم من نسبه هذا حتى أن الطيور كانت تخاف من صورته. وتُظهر تماثيل بريابوس، والتي كان يتم طلاؤها بالأرجواني لتكون مخيفة بشكل خاص، الإله وهو يحمل هراوة في إحدى يديه وفي اليد الأخرى كان يحمل منجلاً على أمل الحصول على حصاد وفير.

وتقول نظرية أخرى أن الفزاعات تعود إلى دمى الحصاد، وهي تقليدياً ما يصنع من آخر حزمة من الحصاد. عُرفت دمية الحصاد بالعديد من الأسماء فهي تدعى (العفريتة) hug في اسكتلندا و(دمية الذرة) corn dolly في انكلترا، و(بابا) baba في بولندا، و(ذئب الذرة) kornwolf في ألمانيا. مثلت دمية الحصاد روح الحبوب وكانوا يجولون بها بطريقة استعراضية طقسية عبر

الحقول. كانت دمية الحقول المرتفعة فوق الحبوب تماثل برج كنيسة يرتفع فوق مدينة من العصور الوسطى وتبدو فعلاً مثل روح الحقول. ويمكن أن ترتبط الفزاعات أيضاً بالقرابين البشرية في الحقول والتي كان يؤديها كهنة الدرويد(١) لضمان حصاد وفير. ولكن هذه النظريات، على الأقل، تستند على حدسنا بشأن الفزاعات أكثر بكثير من الأدلة الدامغة.

في قصيدة (البومة والعندليب) The Owl and the Nightingale وهي قصيدة انكليزية من أوائل القرن الثاني عشر مجهولة المؤلف، هناك إشارة إلى تمثال استخدم كفزاعة. كانت البومة والعندليب يتبادلان التهكمات في مناظرة مفعمة بالحيوية، حيث قام الطائر المغرد بالسخرية من خصمه الكئيب، فالبوم إن تم اصطياده فسيتم تحنيطه ورفعه على عصا ووضعه في الحقول ليخيف الطيور الأخرى وخاصة الغربان. أوحت هذه الصورة، في التفكير المجازي للعصور الوسطى، بالصليب الذي يخيف جميع الشرور والارواح. وردت البومة بالقول ان عملها حتى وهي ميتة كان ذا فائدة أكبر بكثير من غناء خصمها غير النافع.

في هذه اللوحة التي تمثل شهر تشرين الأول من كتاب Très Riches Heures لدوق بيري، والتي رسمها الأخوان ليمبورغ في بدايات القرن الخامس عشر، تظهر أوائل الصور لهذا النوع من الفزاعات، كدمية تحمل غراباً وسهماً. ولا يبدو شكلها فعالاً بما يكفي على اعتبار أن الطيور تتبع المزارع الذي يبذر في مقدمة اللوحة وتنقر البذور من الأرض.

وبحلول القرن السادس عشر، أصبحت الإشارات إلى الفزاعات في الأدب شائعة وكان هناك العديد منها في أعمال شكسبير في مسرحيته الصاع بالصاع Measure for Measure الفصل الثاني، المشهد الاول، حيث يجادل أنجيلوا النائب الدوق فينسينتو لتطبيق القانون بقوة بقوله:

ينبغي ألا نجعل من القانون فزاعة
موضوعة لتخيف الطيور الجارحة

---

(١) كاهن من السلت في بلاد الغال وبريطانيا القديمة.

تمت تجربة أنواع متعددة من الأساليب لإبقاء الغربان بعيداً عن الحقول. وهذه الصورة من أواخر القرن التاسع عشر تظهر الهنود الحمر (سكان أمريكا الأصليون) وهم يضربون على المقالي.



ونبقيه في شكل واحد، حتى تجعله العادة
ملجأ لها، وليس مصدر خوفها

كانت الإشارات الى الفزاعات في الأدب غالباً ساخرة وتهكمية، وكتب دبليو. بي. ياتس في قصيدته (بين أطفال المدرسة Among School Children: الملابس القديمة على العصي القديمة تخيف الطائر. وفي أعمال ادموند سبنير من عصر النهضة، أصبحت الإشارات إلى الفزاعات مزدراة بشكل خاص. ومع ذلك وبينما نقترب من العصر الحديث، أثارت عدم فاعلية الفزاعات شفقة أكثر واحتقاراً أقل. وبالتدريج، أصبحت الفزاعات تُعتَبَر نوعاً من التراث الشعبي وتذكاراً عاطفياً بماضينا الريفي.

في الليل، لا تبدو الفزاعات أكثر من ظلال في أمام صفحة السماء التي يضيئها القمر، ويمكن لها أن تكون فعالة جداً في إخافة الناس الذين يصادفونها فجأة. كانت الفزاعة بين الألمان الذين استقروا في بنسلفانيا تدعى bootzamon وتقول إحدى الأساطير الأمريكية إن هذه الفزاعات تدب فيها الحياة في الليل. وعبر السنوات تغير الاسم إلى bogeyman وهو شكل يستخدم لإخافة الأطفال ودفعهم للقيام بالتصرفات الجيدة.



(العادة لا تصنع راهباً).

كانت الفزاعة تستخدم غالباً كرمز للحماقة، كما في هذه القصة الهزلية الفرنسية منذ حوالي قرن من الزمان.

ولعل أول قصة من بين العديد التي كانت فيها الفزاعات شخصيات رئيسية كانت رأس الريش «Feathertop» لناثانيل هاوثورن والتي نشرت للمرة الأولى في ١٨٤٦ كجزء من مجموعته «طحالب من منزل القس القديم» Mosses from an Old Manse. حيث تحاول ساحرة من

نيو انغلند تدعى الأم ريغبي أن تصنع فزاعة أقرب ما تكون الى الحقيقة، لتحمي حقولها من الغربان والطيور السوداء. وكان ظهر الفزاعة مصنوعاً من عصا المكنسة كانت تركبها في الليل. وكان جسم الفزاعة مصنوعاً من حلية رائعة ولكنها باهتة من لندن وباريس، ورأسها يقطينة محفورة وشعرها من الريش. ولكنها قررت أن الفزاعة كانت أفضل من أن تبقى في الحقول، فقامت بإحيائها من خلال إعطائها غليونها السحري لتدخنه وثم أرسلتها لتتودد إلى الفتيات الشابات في المدينة. وكان رأس الريش Feathertop» هو اسم الفزاعة واستطاع أن يثبت نفسه كرجل فطن وله تأثير كبير. وعلى الرغم من ذلك، عندما لاحظ أنه ليس أكثر من حزمة من القش، قام الفزاعة برمي الغليون بعيداً ومات.

رغم أن قصة هاثورن أصبحت منسية في هذه الأيام إلا أنها جعلت من الفزاعة عنصراً مهماً في الثقافة الشعبية، بفطرة بدائية ولكن مع قليل من الثقة مثّل Feathertop» رأس الريش الشكل الذي أصبح منذ بداية القرن الثاني عشر نموذجاً لأكثر الفزاعات التي تلته في الأدب وحتى في الحياة. وظهر ذلك في الفزاعة في قصة ساحر أوز العظيم The Wonderful Wizard of Oz والتي صدرت في ١٩٠٠ للكاتب ل.فرانك باوم وتتماتها، وهي رواية خيالية ترتكز قليلاً على العصور الوسطى، أصبحت إحدى الشخصيات المفضلة في أدب الأطفال، حيث يكون المقطع الذي تلتقي فيه دورثي بطلة الرواية بالفزاعة من أشهر المقاطع في أدب الأطفال. في البداية استطاع الفزاعة إخافة الطيور ولكن فيما بعد نظر إليها غراب عجوز وحطّ على كتفها، وكما روى الفزاعة الحوار، فقد قال لها الغراب:

(أتعجب أنَّ ذلك المزارع فكر في خداعي بهذه الطريقة الخرقاء. إنَّ أي غراب عاقل يستطيع أن يرى أنك محشو بالقش.) ثم قفز إلى الأسفل على قدميه وأكل الذرة التي أرادها، ولما رأت الطيور الأخرى أنني لم أؤذه أتت لتأكل الذرة أيضاً، وهكذا وفي وقت قصير تجمَّعَ سرب عظيم من الطيور حولي. وقد جعلني هذا الأمر أشعر بالحزن فقد تبيّن أني لست فزاعة جيدة

في النهاية، ولكن الغراب العجوز واساني بقوله (لو كان لك عقل في رأسك فستكون رجلاً جيداً مثل أي منهم بل وأفضل من بعض منهم، فالعقل هو الشيء الوحيد في هذا العالم الذي يستحق أن يملكه المرء، ولا يهم إن كان غراباً أو رجلاً) (٦).

ويكاد الجميع تقريباً يعرفون ما حدث لاحقاً، فبعد العديد من المغامرات أظهر ساحر أوز للفزاعة أنه كان ذكياً جداً طوال الوقت، وكل ما كان الرجل القشي يحتاجه هو شهادة تعترف بذكائه. وتستبق القصة نزعات الثقافة الشعبية في القرن العشرين التالي، والتي أصبح فيها تقدير الذات المتزايد يُقدم على أنه الحل لمجال واسع من المشاكل الشخصية والاجتماعية. حيث أن جثوم الغراب العجوز الحكيم على كتف الفزاعة كأنه صديقه أصبح صورة ساخرة في الثقافة الشعبية الأمريكية. وهي تُرى على الملصقات وفي كل مكان في كل عيد قديسين، على الرغم من أن القليلين من الناس يلاحظون أن مصدرها هو رواية ل.فرانك باوم الكلاسيكية للأطفال.

في انكلترا، تزاحم فزاعة أوز على الشعبية دمية حقول أخرى باسم ورزل جوميدج والتي ابتكرتها الروائية باربرا ايوفان تود في عام ١٩٣٦. تتم إعادة سرد قصصها باستمرار في الإذاعة والعروض التلفازية والأفلام. ورزل كان له رأس من اللفت المقطوع ويرتدي قبعة بولينغ سوداء، وهو ساذج محبوب ولكنه سريع الغضب. وبالتأكيد لم يكن مخيفاً بالنسبة للطيور الأصغر وقد جعل زوج من الطيور المغردة عشهما في جيبه الأمامي وكانت عصافير الدوري تسرق القش من جسمه، ولكنه قام بعمل محترم جداً في إخافة الغربان، ويشرح ورزل سبب نجاحه هذا، بأنه يبدو أشعث كثيراً والغربان من محبي الترتيب، باستثناء عندما تكون في أعشاشها. وفي علاقاته بالطيور، ربما كان ورزل يشبه العم أو الخال قليلاً من حيث تمكنه من إخافة الراشدين ولكنه ودود مع الأطفال.

ومثل العديد من الأشياء الأخرى المصنوعة يدوياً والمرتبطة بالحياة الريفية، فقدت الفزاعات التقليدية الكثير من منفعتها، المشكوك فيها دائماً، ولكنها اكتسبت جاذبية الحنين إلى الماضي في عصرنا العالي التقنية. وهؤلاء

المزارعون العازمون فعلاً على إخافة الغربان قد يبنون العديد من النماذج الكهربائية في حقولهم، وبعضها مبرمج على أن يضيء في فترات منتظمة أو يصدر صوتاً مثل صوت إطلاق المسدس، وبعضها الآخر يحتوي تسجيلات لأصوات إطلاق نار وأصوات أخرى مخيفة. والعديد من الفزاعات المتطورة تقنياً تقوم بتحريك أطرافها أو إدارة رأسها ولا تزال فعالية هذه الدمى في إخافة الغربان غير مؤكدة عل الرغم من أنها فعالة تماماً في إخافة البشر.

وعلى أي حال، فعلى المزارعين المهتمين جدياً بمسألة إبعاد الغربان أن يبتكروا أشياء جديدة باستمرار، من أجل أن يسبقوا الطيور بخطوة. ومؤخراً قامت كاثرين الستون بالكتابة عن أحد المزارعين في أريزونا وهو من هنود الهوبي، وقد أحضر مسجلة وأدار الصوت عالياً لتصدر موسيقى الروك والرول عبر حقله. وعندما عاد في اليوم التالي، كانت هناك غربان أكثر من قبل في حقله وهي تقفز بمرح مع النغمات.

اكتسبت الفزاعات موقعها كعمل فني مع القليل من الذرائع حول مدى فائدتها. واليوم لدى العديد من المجتمعات الريفية في أمريكا مهرجانات سنوية للفزاعات في تشرين الأول، تتميز بالكثير من المرح خلال صنع الفزاعة وهي تعكس ثقافات الأمم التي تُصنع فيها. فالفزاعات الفرنسية صارمة، ربما على أمل أن تجد الغربان أن ملامحها تحمل تهديداً، في حين أن الفزاعات الأمريكية المتفائلة تبتسم للأبد. يستخدم الانكليز والايرلنديون فزاعاتهم في الهجاء السياسي. وفزاعات هنود منطقة زوني في الجنوب الغربي الأمريكي هي شياطين ملونة مبنية من العظام والخرق وجلود الحيوانات. وغالباً ما يصنع اليابانيون الفزاعات على هيئة إله الحصاد سوهودو نو كامي، وتُترك بعض التقدمات من حلوى الأرز في بعض الأحيان عند أقدام التمثال، وتقول التقاليد إنّ هذا الإله سيجعل منزله لهذا الموسم في الفزاعة.

وفي القرن العشرين ازداد مجال وتنوع الفزاعات في كل مكان تقريباً. وهي تقدم الفرصة لعبث الخيال المفتوح. واليوم، هي أشباح ومشعوذون ومصاصو دماء وراقصون وكائنات فضائية ونجوم غناء وشياطين متنوعة.

هوامش

١ ماري ويب، Precious Bane، (نيويورك، ١٩٦٠م)، الصفحة: ٤٥.

٢ ويلسون، ألكسندر وتشارلز لوشيان بونابرت، American Ornithology أو The Natural History of Birds in the United States، المجلد الرابع، تحقيق روبرت جامسون (ادنبرة، ١٨٣١)، الجزء الأول، الصفحات ٢٣٧-٢٣٨.

٣ جيمس غيبلين ودال فرجسون، The Scarecrow Book (نيويورك، ١٩٨٠)، الصفحة:٢٨.

٤ المرجع السابق، الصفحة ١٨.

٥ توماس هاردي، جود المغمور Jude the Obscure (نيويورك، ١٨٦١)، الصفحة: ١٩.

٦ ل .فرانك ياوم، ساحر أوز الرائع The Wonderful Wizard of Oz (نيويورك، ١٩٦٠)، الصفحة: ٤٧ز

8- القرن العشرون وما بعد

كن بخير! وإن كان إلى الأبد
فكن بخير إلى الأبد.
كاو! كاو! كاو

شين أوكاسي[١]، «الغراب الأخضر»

إن جميع الكتابات أو الفنون حول الحيوانات هي محاولة للتواصل مع عالم الطبيعة، ولكن الناس يفهمون الطبيعة عبر العديد من الطرق المتباينة؛ فبالنسبة إلى فان كوخ كانت الطبيعة لا تزال مصدراً للتناغم، ولكن مع اقتراب القرن التاسع عشر من نهايته، ازداد انشغال الناس بعنف الحياة في البرية. وبعد عقود عِدّة من السلام النسبي والازدهار، شعر الكثيرون من الأوروبيين والأمريكيين الشماليين بالملل والاضطراب. ويربط المفكرون مثل فريدريك نيتشه[٢]، المخلوقات البرية وخاصة منها المفترسة بالماضي البطولي والحيوية البدائية لأبطال قصائد هومر. وقد ملأت هذه الروح أعمال رواد الأسلوب المعروف بـ (قصة الحيوان البري) مثل روديارد كيبلينغ[٣] في بريطانيا وايرنيست تومبسون سيتون[٤] في أمريكا الشمالية، حيث فكرا في الحيوانات وكأنها تعيش على مقياس ملحمي، مما يغاير تدهور الرجال والنساء من الطبقة البورجوازية. وكتب سيتون في مقدمة كتابه (الحيوانات البرية التي عرفتها) Wild Animals. have Known، «دائماً ما تنتهي حياة الحيوان البري نهاية مأساوية». ثم يمضي في سرد قصص حيوانات متعددة، كان العديد منها مرتداً رومانسياً عن الحضارة.

(١) كاتب مسرحي ايرلندي شهير (١٨٨٠-١٩٦٤).
(٢) فيلسوف وعالم لغويات ألماني (١٨٤٤-١٩٠٠).
(٣) شاعر وكاتب بريطاني (١٨٦٥-١٩٣٦).
(٤) كاتب شهير من اصل اسكتلندي يعيش في كندا وحصل على الجنسية الأمريكية (١٨٦٠-١٩٤٦).

يعكس فن ايفان بيليبين[1] (١٨٧٦٠١٩٤٢) قسوة الحياة في روسيا في بدايات الفرن العشرين، والمجاعات والإعدامات الجماعية والحروب.



ومن بين حكاياته عن الحيوانات الأبطال كانت قصة (البقعة الفضية، قصة غراب) «Silverspot، the Story of. Crow». ومثل أغلبية أبطال سيتون من الحيوانات، كان الغراب سيلفربوت أو البقعة الفضية محارباً يتمتع بشجاعة ودهاء استثنائيين، وقد سُمي بهذا الاسم بسبب وجود بقعة فاتحة إلى جانب منقاره». وكان يقود سرباً يتألف من حوالي مئتي غراب على تل قرب تورونتو، ومثل ضابط عسكري، كان يدرب الغربان تحت إمرته في مناورات للحصول على الطعام أو تجنب الأخطار من مثل الرجال المسلحين. وازدهر حال السرب تحت إمرته حتى قتله بوم في إحدى ليالي الشتاء. وبخسارة قائدها انخفضت أعداد الغربان وبدا أنه حُكم عليها بالنسيان.

وعلى الرغم من عمل بضعة مراقبين أذكياء مثل جيلبيرت وايت، فإن دراسة سلوك الحيوانات بقيتْ ساكنة منذ أيام أرسطو وحتى داروين. وبحلول نهاية القرن التاسع عشر، كان لا يزال بعيداً عن كونه فرعاً أكاديمياً معترفاً به. وكان لسيتون بالتأكيد طموحات علمية، حيث أكد أن جميع قصص

(١) رسام ومصمم مسارح روسي (١٨٧٦-١٩٤٢) من أكثر الفنانين تأثيراً في القرن العشرين.



صورة من رسم الفنان بول غوغان(أبداً، ليس بعد الآن) Nevermore (١٨٩٧)، والتي تشير إلى قصيدة إدغار آلان بو (الغراب) The Raven ولكن بطريقة غامضة. ربما تستلم المرأة التاهيتية رسالة من حبيبها بواسطة الغراب...



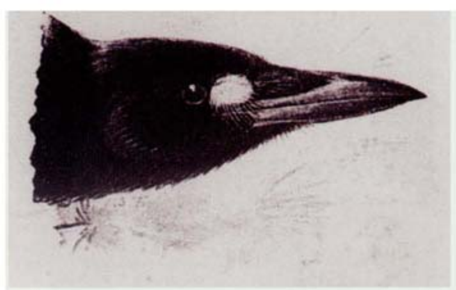
هذه الصورة تمثل تفسير ادوارد مانيه ومالارميه لقصيدة بو The Raven (الغراب) حيث يُظهران المتحدث كأرستقراطي يعيش في قصره في مدينة صناعية ويبدو كل من الطائر والمنزل في غير مكانهما الصحيح.

الحيوانات التي أوردها كانت صحيحة، باستثناء بضع تكهنات وإضافات تزينية بسيطة. وكان أكثر علماء الطبيعة شعبية في عصره، على الرغم من أنه لم يكن يتمتع بسمعة طيبة فيما يخص الدقة بين العلماء زملائه، لكنه وبالتأكيد امضى وقتاً طويلاً بين الحيوانات وحاول تدوين ملاحظاته بعناية، حتى أنه في قصة البقعة الفضية Silverspot، استخدم النغمات الموسيقية لتدوين لغة الغربان.

في الحقبة التي شكّك فيها العديد من الشعراء والروائيين في احتمال وجود البطولة التقليدية وتحولوا إلى أعداء للأبطال مثل ج.ألفريد بروفروك أو ليوبولد بلووم، ملأ سيتون قصصه عن الحيوانات بأبطال عنيفين متورطين في معارك ملحمية. وكان دائماً ينظر إلى الحيوانات من منظور يدعى في بعض الأحيان «نظرية الرجل العظيم حول التاريخ» وهو منظور يؤكد على الأفراد المتميزين أكثر من الظروف والعوامل الاقتصادية أو الجغرافية. ولو أن هذه

ربما يكون هذا الطائر الذي يظهر في هذا الإعلان الفرنسي من العشرينات من القرن العشرين غراباً ذا قلنسوة، وهو طائر يرتبط بحميمية بالأرض والطقس.

pi Volo
APERITIF
AUX VINS DE FRANCE





أعلى الصفحة إلى اليمين: يد فنجان صيني، جوهرة المجموعة: لوحة للفنان ايرنست تومبسون سيتون لقصته «البقعة الفضية: قصة غراب» :Silverspot The Story of. Crow (١٨٩٨).

لوحة لوجه البقعة الفضية Silverspot لايرنست تومبسون سيتون.

القصص كتبت عن البشر فلربما كانت ستعتبر أدباً رديئاً، ولكن بما أنها كتبت عن الحيوانات فإن ميله نحو العاطفة والإثارة (الميلودراما) كان أكثر من مقبول. وأصبح كل من حيوانات سيتون الأبطال نسخة من هانيبعل، وروبن هود أو هيئة ممجدة من الماضي. أما بالنسبة للبقعة الفضية Silverspot فقد كان هذا الغراب نوعا من ويات ايرب[١] أو وايلد بيل هيكوك[٢]، يدافع عن المجتمع الحدودي ضد قوى الفوضى حتى نهايته المأساوية. وتظهر بعض الغربان سلطوية أكثر من غيرها، على الرغم من أنه من الصعب تصديق فكرة أن مجتمع الغرابيات الكبير يمكن ان يقوده قائد فرد. ومن جهة أخرى

(١) ١٨٤٨-١٩٢٩، مزارع أمريكي وصياد ثيران وشرطي في العديد من المدن الأمريكية ومقامر وحلاق وعامل مناجم وحكم ملاكمة، وقد اصبح رمزاً في التاريخ الشعبي الأمريكي وموضوعاً للعديد من الأفلام والبرامج التلفزيونية.

(٢) جيمس باتلر هيكوك (١٨٣٧-١٩٧٦) شخصية من الغرب الأمريكي القديم معروف بمهاراته في استخدام السلاح واقتفاء الأثر وله سمعة طيبة كرجل قانون.

فإن الغربان مليئة بالمفاجآت ولذلك ليست هناك طريقة للتأكد.

اكتسبت الدراسة العلمية للغرابيات شعبيتها بعد بضعة عقود من خلال أعمال عالم السلوك الحيواني النمساوي الشهير كونراد لورنز[1] الذي كان رائداً مثل سيتون. تومبسون وأكثر براعة بكثير. ونظراً إلى سيطرة الحربين العالميتين على النصف الأول من القرن العشرين فقد كان كلٌ من عالمي الطبيعة يفكر بالحيوانات باستعارات عسكرية. حيث انضم لورنز إلى الحزب النازي مباشرة بعد الاجتياح الألماني للنمسا في عام ١٩٣٨، وأعلن في طلب انتسابه أن «عمل حياتي العلمية بكامله. والذي تحتل فيه الأسئلة حول النشوء والأعراق والتحليل النفسي الاجتماعي الأهمية الكبرى. في خدمة الفكر الوطني الاجتماعي»(١) وبعد وقت قليل أصبح لورنز أيضاً عضواً في المكتب الحكومي لسياسة الاعراق. وبعد الحرب تمكن من إخفاء مشاركاته السياسية وألّفَ كتاباً مشهوراً يدور حول حياته مع الحيوانات بعنوان خاتم الملك سليمان King Solomon»s Ring، والذي سرعان ما أصبح من بين أفضل الكتب مبيعاً على مستوى العالم.

كان الكتاب مليئاً بمقالات صغيرة وصور لطيفة. واحتفظ لورنز بغراب أليف كان يُزعج الجيران أحياناً من خلال سرقة ملابس السيدات الداخلية من على حبال الغسيل، ولكن مستعمرته من غربان الزيتون الأسيرة قدمت للورنز مخزوناً عظيماً من المواد. وفي إحدى المرات قام عدد كبير من غربان الزيتون بمهاجمته وبدأت بنقر إحدى يديه. ولاحظ فيما بعد أن ذلك أنه كان يحمل في يده بنطال سباحة أسود مترهلاً ويبدو مثل غراب صغير. وتوصل عندها إلى نتيجة أنه لدى غربان الزيتون غريزة دفاعية يمكن إطلاقها عبر مشهد أي شخص يحمل شيئاً يشبه فراخها.

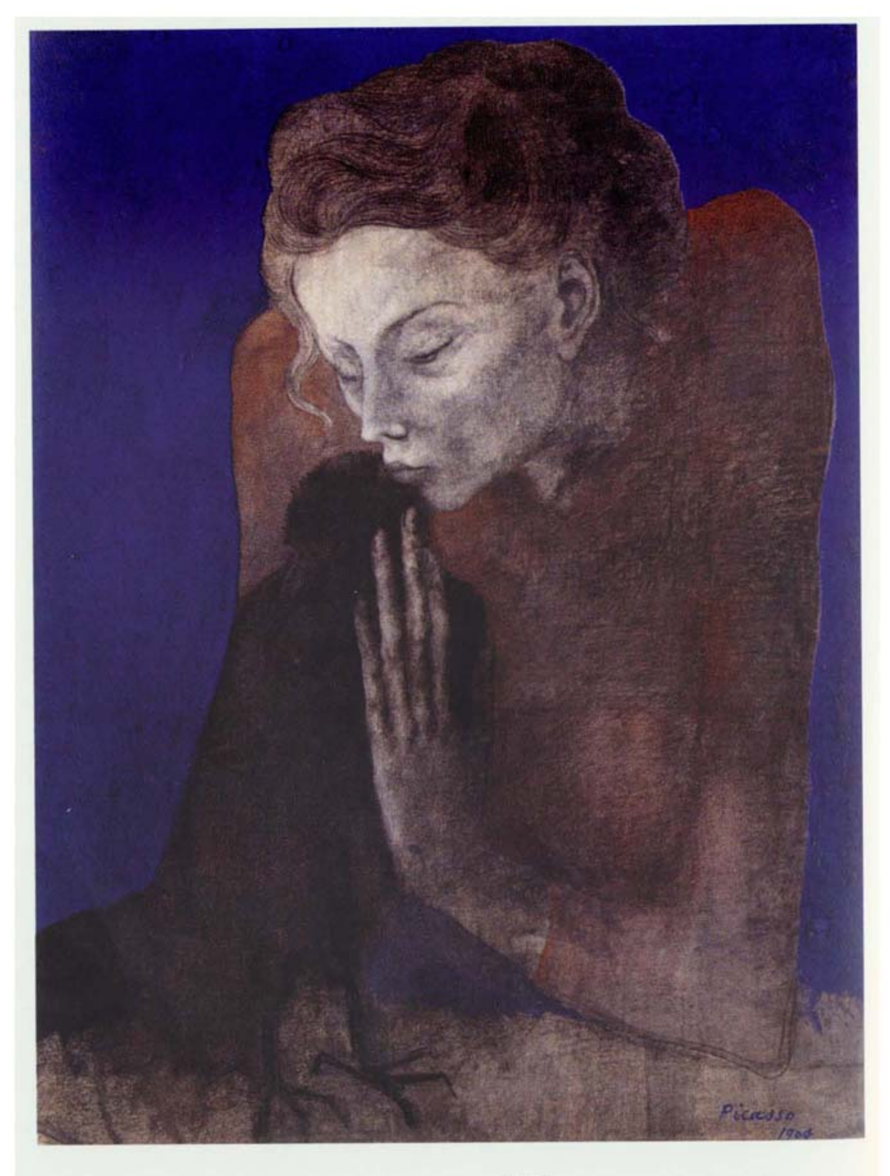
ومع ذلك فإن خلفية الكاتب كنظري نازي كانت واضحة في منظوره القاسي للطبيعة كميدان للهيمنة والصراع الدائم. ومثلما كان التفوق الفردي راسخاً لدى ايرنست تومبسون سيتون، كذلك كان لورنز مشغولاً



هذه الصورة تعرض لوحة كتاب انكليزي تعود لبدايات القرن العشرين يظهر فيها مهرج من العصور الوسطى يؤنس غراب وحدته وهو نوع من (الأحمق الحكيم)

على الصفحة المقابلة: لوحة لبابلو بيكاسو، امرأة برفقة غراب (١٩٠٤). ولعله بسبب تأثير ديكنز وبو، أصبحت الفكرة السائدة حول الغربان أنها رفيقة المنبوذين وغريبي الأطوار.

(١) (١٩٠٣-١٩٨٩) عالم حيوانات نمساوي وخبير في علم نفس الحيوانات، وحاز على جائزة نوبل.


Picasso



THE ANGELS OF PEACE DESCEND ON BELGIUM

صورة ساخرة في الصحيفة اللندنية Evening Standard بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٤٠: ويظهر فيها هيملر والنازيون الآخرون كغربان يجلبون الدمار في إثرهم.

بالتسلسل الطبيعي. وادعى لورنز أنه لاحظ أن غربان الزيتون في مستعمرته كانت منظمة بدقة على هيئة نظام هرميّ. حيث يعرف كل غراب منها بالتحديد أي الحيوانات تعلوه مرتبة أو هي أدنى منه، تماماً كما في الجيش. وبعض غربان الزيتون التي حددها لورنز على أنها ذات مرتبة عالية لم تكن عادة تقبل أن تكون لها علاقة مع من هي أدنى منها فرضياً. فكيف يمكن إذاً التأكد من صحة وضع المراتب؟ ولربما تكون هذه المراتب غير قابلة للنقل أو في تقلب مستمر؟ لم يضع لورنز في اعتباره هذه الاحتمالات ولكنه قدم تفسيراً آخر: (إن غربان الزيتون ذات المرتبة العالية جداً لا تتعاطف أبداً مع المراتب الأقل وتعتبرها كالغبار تحت أقدامها ...)(٢).

وبكلمات أخرى، فإن سرب غربان الزيتون كان نوعاً من مؤسسة ضخمة حيث لا يتنازل أصحاب المراتب العليا حتى بالتحدث مع عمال خطوط التجميع.

لطالما قام الناس بوصف المجتمعات الحيوانية بأوصاف المؤسسات المألوفة، وجعلوا منها ممالك وجيوشاً وجمهوريات اشتراكية أياً كان النمط السائد في أيامهم.

وكما لاحظنا، كان سيتون ولورنز قريبين من بداية دراسة السلوك الحيواني، والتي أضحتْ أكثر تعقيداً وتطوراً بكثير منذ منتصف القرن العشرين. كلا العالمين أشعل جدالات مكثفة حول المكانة العلمية لأساليبهم واستمرت الجدالات حتى يومنا هذا. سيتون ولورينز كانا يقومان بتجسيم الحيوانات بدون خجل، وبمعنى آخر، فقد عزيا ردود الفعل البشرية إلى الحيوانات، ولكن ظهرت مشكلة واحدة مع هذا المنظور نحو الحيوانات وهي أنه لمّا كانت التغيرات الاجتماعية مستمرة، فإن عملية التجسيم بدأت تبدو قديمة بسرعة شديدة. وأن النماذج المستخدمة من قبل لورنز وسيتون لم تعد تبدو الآن وحشية او بشرية. وحتى أن المؤسسات اليوم، في أغلب أجزائها لم تعد مرتبة مثل مستعمرة غربان لورنز.

وفي أثناء ذلك، كانت الثقافات الشعبية أكثر تجسيماً من أعمال أي من علماء الطبيعة، من حيث دمج الغربان مع الأفارقة السود والتي بدأت في العروض الهزلية من خلال شخصية جاك الغراب، واستمرت بصور أقل خبثاً على امتداد القرن العشرين. في عام ١٩٤١ ظهر فيلم رسوم متحركة بعنوان دامبو الفيل الطائر، Dumbo, the Flying Elephant وبطله فيل صغير له أذنان كبيرتان وغالباً ما تصاحبه غربان تتحدث بلهجات جنوبية حادة وتبدو مثل العمال السود في مزرعة. وهي تغني «أظن أني سأكون قد رأيت كل شيء تقريباً. بعد أنْ رأيتُ فيلاً يطير» بشكل يشبه موسيقى البلوز. وبالرغم من ذلك نرى أن الغربان إلى جانب البطل بشكل واضح وتقدم لدامبو المساعدة والتفهم حتى أنها تساعده في تطوير موهبته على الطيران. وأيضاً وبشكل مغاير قليلاً هناك الغرابان هيكل وجيكل اللذان ظهرا في سلسلة من أفلام الرسوم المتحركة من إنتاج وارنر براذرز والتي نالت شعبية كبيرة في الولايات المتحدة خلال الخمسينات والستينات من القرن الماضي. وهما مثلهما مثل باغز باني والعديد من شخصيات الرسوم المتحركة في ذلك الوقت، كانا محتالين بارعين بشكل يشبه قليلاً محتالي الشوارع من الأحياء التي يسكنها الفقراء السود.

ولكن صور الغربان التي وصلت إلينا من الأوقات الانجيلية، الخيّرة منها والشريرة، قلما بدت تفتقر الى الاحترام. امتلأ القرن العشرون بالكوارث التي تشبه نهاية العالم على مقياس العهد القديم، بما في ذلك معسكرات الاعتقال والقنابل النووية. وهناك الآن تهديدات أكثر ضراوة بسبب الانهيار البيئي او الإرهاب. وفي النصف الأول من القرن العشرين، خاطب الكاتب البرتغالي ميغال تورغا[1] هذه المخاوف في قصته (الغراب فينست Vincent the Raven»، والتي ترتكز على القصة الانجيلية لنوح وفُلكه. وفيها يكون الغراب حيواناً في الفلك ويصبح غاضباً لأنه على الحيوانات والأرض أن تتحمل العقوبة عن الجرائم التي ارتكبها البشر. وفي النهاية غادر فينسنت الفُلك بدون أن يُطلب منه ذلك وحط على قمة جبل أرارات وأعلن معارضته للرب. واستمر الفيضان بالارتفاع ولكن فينست رفض المغادرة وأخيرا لاحظ الرب أنه إذا أغرق فينسيت فإن خلقه لن يكون كاملاً بعد الآن، لذلك فقد سمح للمياه بالتراجع على مضض. يمثل فينسينت في التقاليد اليهودية الأنبياء والحكماء مثل ابراهام قبل تدمير مدينتي سدوم وعمورة.

وبروح مشابهة اختار المسرحي الايرلندي شون اوكاسي (١٨٨٤-١٩٦٤) الغراب ليكون رمزاً له «طير عادي، الغراب» وكتب». مثلي أنا، مثلنا جميعاً» (٣). وأخبر قصة غراب أنثى طويلة كثة أثارت غضب المزارعين المحليين بسبب سرقتها البيض من أقنان الدجاج.

وفي إحدى الأمسيات رأى أوكاسي ضابطاً انكليزياً يدعى الرقيب روش يعرف أيضاً بالرصاصة الممتازة، وقد لاحظ اللصة سيئة السمعة على شجرة. فرفع الرقيب ببطء مسدسه وظن المشاهدون أن الغراب سرعان ما ستتحول إلى شظايا. ولكن الرصاصة لم تنطلق أبداً، فقد بدا كأن أنثى الغراب قد اختفت على الرغم من أن أحداً لم يشاهدها تطير بعيداً أو يسمع خفق جناحيها. وفجأة، سمعوا من بعيد صيحة الطائر الساخرة. لم يكن على

(١) أحد أعظم الكتاب البرتغاليين في القرن العشرين (١٩٠٧-١٩٩٥).

اوكاسي أن يشرح معنى هذه الحادثة لأبناء بلده، فبالتأكيد ذكرهم الغراب بالثوار الايرلنديين الذين يتحدون ويهربون من حكامهم البريطانيين عبر القرون.

وقد رأى أو كاسي نفسه بشكل أكثر تحديداً كغراب أخضر، ألا وهو من فئة الغربان السود، فاللون الأخضر كما يعرف الجميع كان اللون الذي يرتديه الثوار الايرلنديون بعد عصيان ويكسفورد في عام ١٧٩٨. والغراب الأسود هو طائر يبدو غالباً أسود اللون ولكن يمكن أن يكون إما أخضر أو أرجوانياً حسب زاوية الإضاءة. وأيضاً هذا يشبه الايرلنديين الوطنيين الذين كانوا يخفون ولاءهم الحقيقي عن خصومهم ويبوحون به لأصدقائهم في ظل الحكم البريطاني. وفي الحقيقة، تعرض اوكاسي للاتهامات من قبل العديد من الوطنيين الذين شعروا بأنه تخلى عن القضية الايرلندية لصالح أمثلة اشتراكية أكثر عالمية. وكان جوابه على هؤلاء النقاد أن كون الغراب أخضر اللون في الواقع يعني أن أوكاسي ايرلندي، حتى وإن كان ذلك غير ظاهر للجميع بالطريقة نفسها. وكان الكاتب المسرحي يشعر أن نضال الايرلنديين يشبه مصائب اليهود القدماء ومعاناتهم وله معنى عالمي. ويمثل الغراب جميع الناس الذين استمروا في الحياة بسبب فطنتهم في عالم تحكمه هيئات قوية مثل الامبراطورية البريطانية.

ولكن الشاعر البريطاني تيد هيوز كان يرى ذكاء الغربان على أنه سحر شيطاني، وبنسبة أقل كذكاء ريفي. وفي مجموعة هيوز الشعرية بعنوان (الغراب) Crow والتي أصدرها في عام ١٩٧٠، كان البطل مفترساً وعديم الشفقة ولكن لا يمكن قهره. وإحدى القصائد في بداية المجموعة بعنوان (امتحان على باب الرحم) «Examination at the Womb-Door» تنتهي بما يلي:

من أقوى من الأمل؟ الموت
من أقوى من الإرادة؟ الموت

من أقوى من الحب؟ الموت
من أقوى من الحياة؟ الموت
ولكن من أقوى من الموت؟
أنا، طبعاً
أوضح، غراب

ويمضي الغراب بتشبيه ذكائه بعناصر الطبيعة، ويحاول مثل البشر في العصر الحديث ان يتخلص من ضجره اللانهائي باستخدام أجهزة تكنولوجية متنوعة بدءاً من السيارات ووصولاً إلى هبوط الصواريخ على سطح القمر. وعلى الرغم من أنه يتعرض للهزيمة في بعض الأحيان يتمكن الغراب من النجاة دائماً.

جميع الثورات الثقافية لديها جانب محافظ دائماً على اعتبار أن الإخلال بالأوضاع القائمة يسمح للتقاليد المدفونة بالظهور إلى السطح. وفي حالة الغربان، فإن هذه التقاليد تتضمن ارتباطات وثنية تنسب بعيداً جداً إلى ما قبل المسيحية واليهودية. وأحد هذه الأمثلة نجده في رواية بيتر بيغل (مكان جميل وخاص) .Fine and Private Place حيث أن هذه القصة تستند جزئياً إلى قصة النبي إليخيا الواردة في الانجيل، والذي انسحب إلى البرية حيث تولت الغربان إطعامه ومُنح في النهاية القدرة على رؤية الأموات المبعوثين. تقع أحداث الرواية في مقبرة إحدى ضواحي المجتمع المعاصر في الولايات المتحدة، حيث يعيش صيدلي غريب الأطوار يدعى السيد ريبوك، وهو يتحدث ويرحب بأرواح الموتى ويقوم غراب ناطق بسرقة الشطائر ليطعمه. ومثلما نرى أن السيد ريبوك عالق بين عالمي الأحياء والأموات نجد أن الغراب يكافح بصعوبة كلاً من الطبيعة والحضارة البشرية. ومثل العديد من المثاليين الآخرين، يتحدث الغراب عن خدمته بفكاهة تقارب حدود السخرية: (يقول الطائر: الغربان طيور عصابية نوعاً ما، ونحن أقرب إلى الناس من أي طائر آخر ونحن ملتزمون بهم طوال حياتنا ولكن ليس علينا أن نحبهم). في النهاية يغادر السيد ريبوك المقبرة ليجمع بين شبحين يدعيان



صورة الملصق الإعلاني عن فيلم الغراب The Crow، بطولة براندون لي، الذي ظهر في عام ١٩٩٣ وهو نموذج جيد عن الروحانية الغامضة والانتقائية لأواخر القرن العشرين.

مايكل ولورا عاشا حياة هادئة وغير مكتملة على أمل أنهما سيولدان من جديد من خلال الحب. وتنتهي الرواية بالغراب وهو يحلق في دوائر بعيداً، بعد أن انتهت الحاجة إليه، وهو بلا شك يراقب الناس بالفكاهة الساخرة نفسها كما من قبل.

أوجد العالم الحديث جميع أنواع المزاوجة بين التقاليد الشعبية والدينية والتي كانت منفصلة في السابق بفعل حواجز التعاليم والجغرافيا. وتشمل هذه الحركات مجالاً واسعاً من الديانات الشعبية مثل الفودو والسانتريا[1]، التي تتركز بشكل كبير على الأحياء الفقيرة لأميركا اللاتينية وجزر الكاريبي، وحتى روحانية العصر الحديث والتي تجذب الطبقة الوسطى في أوروبا وشمال أمريكا بشكل خاص. ويشكل الغراب أو الغراب الأسود في جميع هذه الحركات التوفيقية رمزاً مهماً. ويزعم أن ماري لافيو، وهي ساحرة قوية في القرن التاسع عشر وكانت تعرف بملكة الفودو في نيوأورليانز. كانت تعود من بين الأموات في بعض الأحيان على هيئة غراب.

من الصعب القول إلى أي درجة يعكس هذا الأمر الحياة الواقعية أو يحمل معانيه إليها اليوم، ولكن العديد من الأفلام والتسالي الشعبية تبدو وكأنها ترتكز على مفهوم الشرف في الفترة التي سبقت ظهور المسيحية والتي يعتبر فيها الانتقام واجباً مقدساً. وخير مثال على هذا هو فيلم الغراب The Crow من إخراج أليكس برويَاس والذي عرض في عام ١٩٩٣ وسرعان ما أصبح محوراً لطائفة دينية. وهو يدور حول موسيقي روك شاب يدعى أليكس درافن تم قتله مع خطيبته من قبل عصابة لصوص في يوم عيد جميع القديسين. وبإرشاد غراب يعود دارفن من عالم الأموات ليبحث عن الانتقام، ويقوده الغراب إلى كل واحد من القتلة حيث يقوم دارفن بمعاقبتهم بموت مؤلم، واحداً إثر الآخر. وتفصل مشاهد تظهر الغراب محلقاً بين حلقات الانتقام في هذه الملحمة السينمائية.

إن الفيلم جيد من حيث التقنية ولكنه كان سيكون عادياً لولا نجمه

(١) ديانة أصلها من جزر الكاريبي.

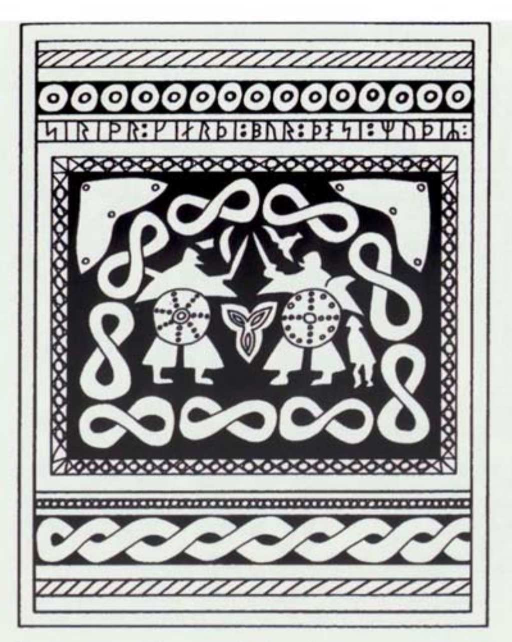
الشاب براندون لي الذي يلعب دور درافن، وهو ابن أسطورة الكونغ فو بروس لي وهو أيضاً خبير فنون قتالية. ونشاهد خلال الفيلم مشاهد يحاول فيها رجال العصابة قتل درافون بالرصاص أو السكاكين ليكتشفوا انه لا يمكن إيذاء رجلٍ ميت بالفعل. ولكن حدث خلال تصوير أحد المشاهد النهائية أن مسدساً يفترض به إطلاق رصاصات فارغة كان محشواً برصاص حقيقي وأصيب براندون بجروح مميتة ومات بعد اثنتي عشرة ساعة. وبعد تحقيق مكثف قررت الشرطة أن مقتل الممثل الشاب الرائد كان حادثاً، ولكن الشائعات استمرت بالانتشار حول هذا الموضوع منذ ذلك الوقت. هل تم اغتيال النجم السينمائي من قبل مجتمع الفنون القتالية لإفشائه أسرارهم؟ هل تم قتله لأنه كان يستقصي بشكل شخصي عن العالم السفلي في الصين؟ هل ظهرت مشاهد حقيقية من مقتله في الفيلم؟ وتبع الفيلم سلسلة من الأفلام التلفازية وقصص المغامرات المستندة إلى هذه القصة. وأصبحت الابتسامة الشبحية لدرافن والغراب إلى جانبه صورة رمزية لمعجبي الخيال والرعب عبر الولايات المتحدة وما وراءها.

وماذا عن الغربان الواقعية؟ لقد أصبحت دراسة سلوك الحيوان أكثر تطوراً في النصف الأخير من القرن العشرينٍ وكرّس العديد من الباحثين الكثير من حياتهم لدراسة الغرابيات. فمثلاً، قام لورانس كيلهام بمشاهدة مجموعة من الغربان بعناية وسجل ملاحظاته بدقة، في حين أن بيرند هينريتش[1] صاحب الاتجاه التجريبي، قام بالكثير من التجارب الميدانية، والتي حاول فيها أن يفهم البنية الاجتماعية للغربان السوداء من خلال تركه لجثة أحدهم وملاحظة كيفية انتشار الأنباء حول هذا الطعم بين الطيور.

وعلى الرغم من جميع التحسينات التي قام بها الباحثون على أساليبهم فإن النتيجة التي توصلوا إليها كانت تحتوي في معظمها على الكثير من كلمة (في بعض الأحيان) والعديد من كلمة (ربما). ونظراً لكون هينريتش خريجاً منجذباً إلى الغربان السوداء، فقد أخبره معلمه ما يلي: (إن الغربان اذكى

---

(١) أستاذ في قسم علم الأحياء في جامعة فيرمونت ولد في عام ١٩٤٠م.



رسم وجد على حجر يعود للقرن الخامس أو السادس الميلادي وهو يعرض صورة للفترة التي سبقت الفايكنغ، ويبدو فيها محاربان يقتتلان في حين ينتظر طائر، يغلب ان يكون غراباً، ليتلهم جثة المهزوم.

منك، وسيلزمك سنوات حتى تتفوق عليها في الذكاء بما يكفي حتى تبدأ في الحصول على بيانات لها معنى) (٤). وبعد أن كرّس هينريتش الكثير من حيلته لدراسة الغربان، كتب التالي:

بعد أن عشت سنوات عديدة في علاقة حميمة مع الغربان، رأيت سلوكيات مذهلة لم أقرأ عنها في أي من تقارير الأبحاث والمقالات حول الغربان في الأدب العلمي، والتي تجاوزت ١٤٠٠ تقرير ومقالة، وأشياء لم أكن لأحلم بانها ممكنة. لقد أصبحت أشكك في أن تفسير جميع سلوكيات الغربان قد تمت قولبته على نمط ردود الفئات المبرمجة والمكتسبة كالتي لدى النحل. وثمة شيء آخر هناك .. وفي النهاية فإن معرفة أن كل ما يدور في أدمغتها هو وجهة لا يمكن بلوغها، مثل اللانهاية (٥).

وقد اكتشف أن الغربان مثل البشر، كائنات فردية بشكل خاص وقد



هذه الصورة تعرض تصميماً قماشياً من هنود وودلاند من شمال شرق أمريكا، وهي مجموعة لغوية وثقافية كبيرة وهي تشمل هنود اللليناب Lenape.

ولدت لتتصرف بطرق لا يمكن توقعها.

إن الغرابيات ومجتمعاتها مرنة إلى حد أنه من الصعب جداً القيام بالتعميم بناءً على تصرف البعض، ومثل البشر، فإن لديها ثقافات، وربما تكون الغربان قادرة على التكيف مع مجال واسع من الظروف بما فيها، على سبيل المثال، أن تتم مراقبتها من قبل العلماء. لماذا تتجمع الغرابيات في أعداد كبيرة على مجموعات محددة من الأشجار خلال الخريف والشتاء؟ حسناً، لماذا يتجمع الناس في أماكن مثل حديقة سنترال بارك؟ يمكن أن نوجه السؤال الأخير إلى مجموع علماء الاجتماع وعلماء النفس والروائيين وسيخرجون جميعاً بأجوبة مختلفة جداً. سيقومون جميعاً وبطرق مختلفة، بالتأكيد على أمور مثل القوة والتواصل الاجتماعي والطعام والروحانية والجنس والطبيعة والنقود والخوف وهكذا، بالاعتماد على اهتماماتهم وأولوياتهم الشخصية. وأغلب الإجابات ستبدو مقنعة إلى حد ما، ولكن لن يكون أحدها كاملاً تماما. وسيروي كل جواب شيئاً ما حول الغربان ولكنه

سيروي أكثر عن المتحدث.

ويمكن أن يقال الشيء نفسه تقريباً عن هؤلاء الذين يكتبون عن الغربان التي تتجمع على الأسطح أو في الأشجار، حيث أنَّ هناك درجة معينة من التجسيم لا يمكن تجنبها عند طرح مثل هكذا سؤال، وهذا سيعكس نفسية الباحث. فإن قالت أحدى العالمات إن الغربان تفعل ذلك بغرض الحماية، فإنَّ هذا قد يعني، على سبيل المثال، أنها تشعر بعدم الأمان، وإذا قال عالم إنها تفعل ذلك بهدف اجتماعي، فالجواب قد يعكس شعوره بالوحدة. وقد يكون لسلوك الغرابيات العديد من الأوجه التي لن تحظى بتفسيرٍ وافٍ .

في القرن العشرين الماضي وما بعده، كانت الغربان من بين العناصر القليلة جداً في تصوير الطبيعة الريفية التي تبدو برية حقاً. عادة ما تكون الغربان واضحة بألوانها السوداء اللامعة وخاصة عندما تُرى في مواجهة الثلج أو سماء الصباح المشرقة. وهي صاخبة كذلك، ونداءاتها وإن لم تكن موسيقية تماماً، فهي جذلة بالتأكيد. ومن الغريب جداً ان الناس لا ينتبهون أكثر إلى الغربان، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الغربان ليست مهمة بالنسبة إلينا.

وغالباً ما يكون الجزء الأكبر من سبب تجاهلنا للغربان هو أنه ليس لدينا سبب نفعي للانتباه إليها. ونحن نعرف طرقاً كثيرة لاستغلال غالبية الحيوانات التي تعيش على مقربة من البشر، فالحمائم مثلاً، تؤكل ويتم استخدامها لإيصال الرسائل، ويستخدم الملايين من الجرذان والأرانب في التجارب في كل سنة. ولكن الغربان تقع بين المخلوقات القليلة جداً التي تمكنت تقريباً من احتلال مساكن البشر نفسها في الوقت الذي تقدم لنا نفعياً، القليل جداً من الفائدة أو الضرر. وهي عادة ما تعطي الناس انطباع اللامبالاة المهيبة، كما لو أنها تنتظر بصبر انتهاء عهد البشر. إن فائدتها الرئيسية بالنسبة للبشر، إنْ وُجِدَتْ، هي كونها إشارة إلهية أو نذيراً بشكل عام.

وربما يكون سبب اعتبارنا الغربان أمراً مسلماً به في غالبية الأحيان يظهر نوعاً خاصاً من الحميمية. وبطريقة مشابهة، فإننا نفشل في ملاحظة الأوجه



هذه الصورة تعرض منحوتة الغربان الثلاثة Three Crows لكيكي سميث (١٩٩٥) والتي قد تكون قد شُكلت على شكل صليب وفقاً لطيور حقيقية سقطت من السماء، وقد قتلت بفعل الغازات السامة أو المبيدات.

التي تعبر بنا في شارع مزدحم. ولكن عندما يبدأ الناس بالانتباه إلى الغربان، فغالباً ما يكون ذلك في أوقات الأزمات، كما عندما يبدأ الرجال والنساء العقلانيون والرزينون بالبحث عن إرشاد من القدر. إنَّ الغراب يُثير مشاعر التعجب التي لا تزول بالألفة وبذلك فإن الغربان تشبه البشر كثيراً بكثير من الطرق.

هوامش

١ بنديكت فوجر كلاوس تاشوير، Die Andere Seite des Spiegels Konrad Lorenz und der Nationalsozialismus، (فيينا، ٢٠٠١)، الصفحة: ٧٩.

٢ المرجع السابق، الصفحة: ١٤٧.

٣ شين أو كاسي، الغراب الأخضر The Green Crow (نيويورك، ١٩٥٦)، الصفحة السابعة.

٤ بيرند هينريتش، الغربان في الشتاء Ravens in Winter (نيويورك، ١٩٥٦)، الصفحة السابعة.

٥ بيرند هينريتش، عقل الغراب Mind of the Raven (نيويورك، ١٩٩٩)، الصفحة: الواحدة والعشرون.

الجدول الزمني للغراب





مليون سنة ق.م 20-30

من المحتمل أن تكون عائلة الغرابيات بدأت في كتلة الأرض التي تعرف اليوم باسم استراليا.

بدأت القارات بالانجراف وتقترب من بعضها، وتمكنت الغرابيات من العبور إلى آسيا، وتلا ذلك تمايز متسارع في التطور، في الوقت الذي انتشرت فيه الطيور إلى أمريكا

12000 ق.م

بدأ الغراب آكل الجيف والغراب ذو القلنسوة بالتمايز (الابتعاد) في العصر الجليدي الأخير.

10000 ق.م

بدأت عبادةالشامان للغراب تنتشر من سيبيريا وآسيا الوسطى على امتداد معظم نصف الكرة الأرضية الشمالي.

3000 ق.م

وفقاً للأسطورة، فقد أرسل نوح غراباً من الفلك لكنه لم يعثر على الأرض وفيما بعد أرسل حمامة ورسا الفلك على جبل أرارات

600 ق.م

وفقاً لأبولودوريس تتزوج الحسناء كورونيس التي يحبها أبولو شاباً يدعى إسشيا .ويحضر الغراب الذي كان أبيض اللون وقتها أنباء الزواج إلى ابولو الذي يقوم بتحويل الغراب الى اللون الاسود نتيجة غضبه

20 م

فقس غراب ناطق على سطح معبد مكرس لكاستور وبولو حيث كان يطير كل يوم إلى المجلس ويحيي الامبراطور تيبريوس والآخرين بأسمائهم. يُقتل الطائر ويقوم المواطنون الغاضبون بقتل المجرم ويحضر حشد كبير جنازة الغراب الرائعة. (بليني)

225

يلجأ القديس بول الناسك إلى كهف في الغابة ليهرب من الامبراطور ديسيوس. وفي كل يوم يأتيه غراب بنصف رغيف من الخبز، وفي إحدى المرات كان القديس أنتوني يزوره فأحضر الغراب رغيفاً كاملاً. (جاكوب دو فوراجين، الأسطورة الذهبية The Golden Legend 1290م)

500 م

في المعركة البريطانية بين آرثر وأوين، يمتلك الأخير قوات مؤلفة من غربان سحرية، قادرة على الشفاء من الجروح وحتى النهوض من الموت، واقتربوا من هزيمة رجال آرثر. (حلم رونابوي The Dream of Rhonabwy في كتاب Mabinogion)

620 م

وفقاً للأسطورة، يختبئ (الرسول) محمد في كهف ليهرب من أعدائه ويحاول الغراب الذي كان وقتها أبيض اللون خيانة النبي الذي يعاقبه على ذلك بجعله أسود اللون ويلعنه للأبد.

1785

تتبنى ماري أنطوانيت غراباً أليفاً في فيرساي وتقوم بإطعامه كل صباح

1812

نشر أول طبعة من حكايات الأخوين جرم الخرافية Grimm Brothers، Fairy Tales التي تحتوي قصصها على الغرابان

1845

نشر إدغار آلان بو قصيدته (الغراب) The Raven

1862-74

تم إحضار الغربان إلى نيوزيلندا للمساعدة في السيطرة على الحشرات

1890

رسم فان كوخ لوحته حقول الذرة مع الغربان تحت السماء المتوعدة Wheatfield under Threate - ing Skies with Crows، وهي واحدة من آخر لوحاته

1890

أصبح الغراب الشخصية الرئيسية في ديانة رقص الأشباح لدى الهنود الحمر والتي ابتدعها النبي ووفوكا



500 ق.م

دفن السلت الغربان في حفر خلال العصر الحديدي، وأحدها التي عثر عليها في وينكليبري كانت مرتبة بشكل متعمد وجناحا الغراب مبسوطان في قاع الحفرة، ولعلها أضحية شعائرية

330 ق.م

يقول أرسطو في كتابه تاريخ الحيوانات Historia Animalium أن كلاً من الغراب الأسود (كوراكس «corax») والغراب (كورون «corone») هما طائران يفضلان الحياة في المدن

200. ق.م

خوذة سلتية من الحديد مدفونة في سيومستي في رومانيا ويوجد على قمتها هيئة غراب بجناحين مبسوطين يخفقان لدى دخول المحارب إلى المعركة

43 ق.م

إنشاء مدينة ليون، Lugd-num، والتي تعني تل الغراب، حيث تبع المستوطنون رحلة الغربان إلى الموقع



864 م

اكتشف أحد الفايكنغ أيسلندا من خلال اطلاق غراب والابحار خلفه (ملحمة فلوكي Saga of Flokki)

1349 م

يورد كونراد فون ميجنبرغ في كتابه المشهور عن التاريخ الطبيعي، أن الغربان تقوم متعمدةً بنقر أعين البغال أو الثيران في مزرعة

1555

أورد بيير بيلون أنه كان ممنوعاً في انكلترا إيذاء الغربان بأي شكل، تحت طائلة غرامة كبيرة، حيث أنهم كانوا يحتاجون الغربان لاستهلاك الجيف وبذلك يمنعون الامراض من الانتشار (L«Histoire de la Nature des Oyseaux)

1667

يأمر تشارلز الثاني بوضع الغربان الأليفة لبرج لندن تحت رعاية سيد الغربان الجليل.

1754

تم تقديم طلب إلى الجمعية العمومية في بنسلفانيا يطالب الولاية بأن تفرض على كل من الرواد قتل دزينة من الغربان ليحق له المطالبة بأرض على الحدود

1900

نشر ل.فرانك باوم رواية ساحر أوز الرائع والتي تتضمن فزاعة.

الثلاثينات من القرن 20

كونراد لورنز العالم في سلوك الحيوان لديه غراب أسود أليف ومستعمرة من غربان الزيتون تزوده بمخزون من المواد التي يحتاجها لنظرياته

1970

نشر تيد هوغز مجموعته الشعرية بعنوان غراب Crow

1993

الغراب، فيلم من إخراج أليكس بروياس، وأصبح بسرعة محوراً لديانة



2002

تمكن غراب في مختبر كاسيلتيك في اوكسفورد من اكتشاف طريقة كيفية ثني سلك ليصنع منه خطافاً للحصول على الطعام، في الوقت الذي فشل فيه القردة والشمبانزي في تقليد فعلتها.

قائمة الكتب المرجعية

إيسوب، The Complete Fables، تحقيق وترجمة أوليفيا وروبرت تيمبل، (نيويورك، ١٩٩٨).

إليان، On Animals، ثلاثة مجلدات، ترجمة أ.ف. شولفيلد، (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٧١)

أفاناسيف، ألكساندر، Russian Fairy Tales، ترجمة نوربرت جوترمان، (نيويورك، ١٩٧٣)

القزويني، حمدالله المصطفى، قسم علم الحيوان في نزهة القلوب، The Zoological Section of the Nuzhatu-L-Qulāb، تحقيق وترجمة ج. ستيفنسون (لندن، ١٩٢٨).

أنجيل، توني، Ravens، Crows، Magpies، and Jays، (سياتل، واشنطن، ١٩٧٨)

أبولونيس الرودوسي، The Voyage of Argo، ترجمة إ.ف. ريو، (نيويورك، ١٩٧١).

أرسطو، Historia Animalium، المجلد الاول، (الكتب ١-١٠)، تحقيق د.م. بالم (كامبردج، ٢٠٠٢)

أرسطوفانيس، الطيور، في Aristophanes، المجلد الثالث، ترجمة بينجامين بيكلي روجرز (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٧٤)، الجزء الثاني، الصفحات ١٢٣-١٣٠.

أسوشيتيد برس، Smart Crow makes her own tools to get food. research، صحيفة هامبشير اليومية Daily Hampshire Gazette، (٨ آب ٢٠٠٢)، العمود ١٠.

Babrius and Phaedrus، ترجمة بين إدوين بيري (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٦٥)

بارهام، ر.إتش (الاسم المستعار: توماس انغولدسبي)، The Ingoldsby Legends، or Mirth and Marvels، (لندن، ١٨٦٦).

باوم، ل. فرانك، The Wonderful Wizard of Oz، (نيويورك، ١٩٦٠)

بياغل، بيتر س.، Fine and Private Place، (نيويورك، ١٩٩٢).

بيلون دو مان، بيير، L›Histoire de la Nature des Oyseaux: Facsimilé de l›édition de ١٥٥٥ (جنيف، ١٩٩٧).

بيرنارد بروس، Vincent by Himself:. Selection of Van Gogh›s Paintings and Drawings Together with Extracts from his Letters letters trans. Johanna Van Gogh، (بوسطن، ماساشوستس، ١٩٨٥)

بيرشورست، جون Mythology of the Lenape، (توسكون، أريزونا، ١٩٩٥)

بوك، ويليامز، ترجمة، Ramayana (بيركلي، كالفورنيا، ١٩٧٦)

بورنز، ديبي، Animal Totem Astrology: How to Use Native American Totems to Uncover your Unique Relationship to Nature and the Seasons (سيدني، ٢٠٠١)

كامب بيل، جوزيف، Historical Atlas of World Mythology. مجلدات (نيويورك، ١٩٨٨)
سيرفانتس، ميغال دو، Adventures of Don Quixote، ترجمة ج.م. كوهين (نيويورك، ١٩٨٨)
كريستي، أنتوني، Chinese Mythology (نيويورك، ١٩٩٦)
سيسرو، The Nature of the Gods and On Divination، ترجمة س.د. يونغ (ايمريست، ماساشوستس، ١٩٩٧).
كليزبي، ريتشارد، جودبراند فيغفوسون، An Icelandic-English Dictionary (أوكسفورد، ١٩٥٧)
كوومب، فرانكلين، The Crows:. Study of Corvids in Europe، (لندن، ١٩٧٨).
داهنهارت، أوسكار، Naturgeschichtliche Volksmärchen، مجلدان، الاصدار الثالث، (ايبزيغ، ١٩٠٩)
دايفس، كورتني، ودينيس أونيل، Celtic Beasts: AnimalMotifs and Zoomorphic Design in Celtic Art، (لندن، ١٩٩٩)
ديكينز، تشارلز، Barnaby Rudge، (نيويورك، ١٩٦٦)
استديوهات ديزني، Dumbo، فيلم فيديو بمناسبة الذكرى الستين، (لوس أنجلوس، ٢٠٠١).
دولان، ادوارد ف، Animal Folklore: From Black Cats to White Horses، (نيويورك، ١٩٩٢).
ايلستون، كاثرين فيهير، Ravensong:. Natural and Fabulous History of Ravens and Crows (فلاغستاف، أريزونا، ١٩٩١)
فيرجسون، غاري، The World»s Great Nature Myths (هيلينا، مونتانا، ١٩٩٦)
فوجر، بينديكت، وكلاوس تاشوير، Die Andere Seite des Spiegels: Konrad Lorenz und der Nationalsozialismus، (فيينا، ٢٠٠١).
فونتناي، اليزابيث دو، Le silence des bêtes: La philosophie. l»épreuve de l»animalité (باريس، ١٩٩٨)
جيليز، هيربرت أ.، ترجمة، Strange Stories from. Chinese Studio، (نيويورك، ١٩٢٦)
جيبلين، جيمس، ودايل فيرغسون، The Scarecrow Book، (نيويورك، ١٩٨٠)
جيل، سام. د، وايرين ف. سوليفان، Dictionary of Native American Mythology، (نيويورك، ١٩٩٢)
جودتشايلد، بيتر، Raven Tales: Traditional Stories of Native Peoples، (شيكاغو، ١٩٩١)
جودوين، ديريك، Crows of the World، (اثاكا، نيويورك، ١٩٧٦)

جرانتز، جيفري، ترجمة، Early Irish Myths and Sagas (نيويورك، ١٩٨١)
جرانتز، جيفري، ترجمة The Mabinogion، (نيويورك، ١٩٧٦)
جرين، ميرندا، Celtic Myths (أوستن، تكساس، ١٩٩٣).
___، Animals in Celtic Life and Myth، (نيويورك، ١٩٩٢)
جريم، جاكوب، وويلهلم، The Complete Fairy Tales of the Brothers Grimm، ترجمة جاك زيبز (نيويورك، ١٩٨٧)
، The German Legends of the Brothers Grimm، مجلدان، تحقيق وترجمة دونالد وارد (فيليدلفيا، ١٩٨١)
جوبيرناتز، أنجيلو دو، Zoological Mythology or Mythology of Animals، (شيكاغو، ١٩٦٨).
هاردي، توماس، Jude the Obscure (نيويورك، ١٩٦١)
هاثورن، ناثانيال، The Old Manse، (بيدفورد، ماساشوستس، ١٩٩٧)
هانينغ، بيتر، The Scarecrow: Fact and Fable، (لندن، ١٩٨٨)
هيني، سايموس، ترجمة، Beowulf، (نيويورك، ٢٠٠٠)
هينريتش، بيرند، Ravens in Winter، (نيويورك، ١٩٨٩)
هيردوت، Herodotus.، مجلدات، ترجمة، أزد. جودلي (نيويورك، ١٩٢٦)
هيتاكونانو لاركسك، The Grandfathers Speak: Native American Folk Tales of the Lenape People، (نيويورك، ١٩٩٤)
هول، كريستينا، إ. رادفورد. م.أ. رادفورد، The Encyclopedia of Superstitions، (نيويورك، ١٩٩٦)
هومر، The Iliad، ترجمة. أ.ت. موراي (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٦٧)
هوليهان، باتريك، ف، The Animal World of the Pharaohs، (نيويورك، ١٩٩٦)
هوغ الفيولي، The Medieval Book of Birds: Hugh of Fouilloy»s Aviarium، ترجمة ويليان ب. كلارك (بينغهامتون، نيويورك، ١٩٩٢)
The Jerusalem Bible، Reader»s Edition، تحقيق ألكسندر جونز (جاردن سيتي، نيويورك، ١٩٦٨).
جويس، ب.دبليو.، Old Celtic Romances: Tales from Irish Mythology، (نيويورك، ١٩٦٢)
كيلهام، لورانس، The American Crow and the Common Raven، (كوليج ستاشين، تكساس، ١٩٨٩).
كورس، آلان س. وادوارد بيتيرز، Witchcraft in Europe ١١٠٠–١٧٠٠: Documentary History، (فيلادلفيا، ١٩٧٢)

لارنجتون، كارولين، ترجمة، The Poetic Edda(نيويورك، ١٩٩٦)
ليمنغ، ديفيد. مارغريت ليمنغ.، Dictionary of Creation Myths، (نيويورك، ١٩٩٤)
ليفي، Livy، ١٤ مجلداً، ترجمة. ب.أو. فوستر (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٦٠)
لورينز، كونراد ز، King Solomon›s Ring: New Light on Animal Ways، ترجمة مارجوري كيير ويلسون (نيويورك، ١٩٥٢)
لويل، جيمس روسل.، Fable for Critics، by James Russell Lowell; with vignette portraits of authors de guibus fabula narratur، (لندن، ١٨٩٠)
ماولوتكي، ايكيهارت، Hopi Animal Stories (لينكولن، نبراسكا، ٢٠٠١)
مارتن، بوبي، All About Scarecrows، (فيرفيد، كاليفورنيا، ١٩٩٠)
ميغانبيرغ، كونراد فون (كونراد فون أليمان) Das Buch der Natur، [نسخة معادة من الإصدار الأصلي من ١٣٤٨-٩ (شتوتغارد، ١٨٦١)
موني، جيمس، The Ghost Dance Religion and the Sioux Outbreak of ١٨٩٠، (شيكاغو، ١٩٦٥)
موير، ريتشارد، The English Village، (نيويورك، ١٩٨٠)
نيل، أفون، وآن باركر، Scarecrows، (باري، ماساشوستس، ١٩٧٨)
نيلسون، ر.ك. Make Prayers to the Raven:. Koryukan View of the Northern Forest، (شيكاغو، ١٩٨٣)
نيكول، س.دبليو. The Raven›s Tale، (ميديرا بارك; كولومبيا البريطانية (كندا)، ١٩٩٣)
أوكاسي، شين، The Green Crow (نيويورك، ١٩٥٦)
أوفيد، Fasti، ترجمة جيمس ج. فرازير (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٩٦)
، Metamorphoses، ترجمة رولف هومفريس (بلومينغتون، انديانا، ١٩٥٥)
باوسانيس، Description of Greece.، مجلدات، ترجمة دبليو، إتش، س. جونز (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٥٩-٦١)
بلوتو، The Comedy of Asses› Plautus، ترجمة بول نيكسون (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٦١)، المجلد الاول، الصفحات ١٢٣-٢٣٠.
بليني، Natural History، ١٠ مجلدات، ترجمة اتش. راكهام، دبليو.أتش.س جونز (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٥٣)
بلوتارش، Greek Lives:. Selection of Nine Greek Lives، trans. Robin A.Waterford (، (نيويورك، ١٩٩٩)
، On the Use of Reason by Irrational Animals، مقالات، ترجمة. روبن واترفيلد (نيويورك، ١٩٩٢)
بو/ إدغار آلان، The Philosophy of Composition»، Readings on Edgar Allan

Poe»، تحقيقي. بوني سزومزكي (سان دييغو، كالفورنيا، ١٩٩٨) الصفحات: ١٣٧-٤٧
The Raven»، Last Flowers: The Romance Poems of Edgar Allan Poe ، and Sarah Whitman، (بروفيدنس، RI، ١٩٨٧) الصفحات: ١١-١٣.
بونغنانت، روسلين، Oceanic Mythology (نيويورك، ١٩٦٧)
بولارد، جون، Birds in Greek Life and Myth (نيويورك، ١٩٧٧)
بروياس، أليكس (المدير)، The Crow، video-cassette، (بوربانك، كاليفورنيا: أفلام بوينا فيستا، ١٩٩٤)
بو سونغ-لينغ، Strange Stories from. Chinese Studio، ترجمة هيربرت أ. جيلز (نيو يورك، ١٩٢٦)
كوامين، ديفيد، Has Success Spoiled the Crow» Natural Acts:. Sidelong View of Science and Nature(نيويورك، ١٩٨٥)، الصفحات: ٣٠-٣٥.
كيغلي، كريستين، The Corpse:. History (لندن، ١٩٩٦)
كويللير-كوش، آرثر، تحقيق The Oxford Book of Ballads (اوكسفورد، ١٩١٠)
ريد، بيل، وروبرت برينغهرست، The Raven Steals the Light، (سياتل، واشنطن، ١٩٨٨)
ڤيتر، جوهان، وكارل كيسلر، Geseze der Republik Pennsylvanien، (ريدنغ، بنسلفانيا، ١٨٠٧)
روب، ألكسندر، Alchemy and Mysticism (نيويورك، ١٩٩٧)
روز، ويليام ستيوارت، Apology Addressed to the Traveler»s Club، or Anecdotes of Monkeys (لندن، ١٨٢٥)
رويلاند، بيريل، Birds with Human Souls:. Guide to Bird Symbolism، (كنوكسفيل، تينيسي، ١٩٧٨)
ساكس، بوريا، Animals in the Third Reich: Pets، Scapegoats، and the Holocaust (نيويورك، ١٩٩٩)
، The Parliament of Animals: Anecdotes and Legends، ١٧٥٠-١٩٠٠، (نيويورك، ١٩٩٢)
ساكس، جون جيوفري، The Blind Men and the Elephant» after. passage in the Udana،. Hindu scripture]، Elephants Ancient andModern، تحقيق ف.س. سيللر. ر.م. ماير (نيويورك، ١٩٦٨)، الصفحات: ١٣٩-٤٠.
شتوشيت، ايليجاه، Animal Life in Jewish Tradition: Attitudes and Relationships (نيويورك، ١٩٨٤)
سكوت، سير والتر، Letters on Demonology and Witchcraft (١٨٣٢)
سيدلمان، هارولد، وجيمس تورنر، The Inuit Imagination: Arctic Myth and

Sculpture (نيويورك، ١٩٩٤)
سيتون، ايرنست تومبسون (ويدعى أيضاً: ايرنست سيتون تومبسون) Wild Animals. have Known (نيويورك، ١٩٠٠)
شكسبير، ويليام، The Complete Works، تحقيق ديفيد بيفينغتون، الاصدار الرابع (بوسطن، ١٩٩٧)
ستيفن، بورتون، The Macmillan Book of Proverbs، Maxims، and Famous Phrases (نيويورك، ١٩٨٨)
ستون، برايان، ترجمة، The Owl and the Nightingale/ Cleanness/ St Erkenwald، الاصدار الثاني (نيويورك، ١٩٨٨)
سيوتونيوس، Suetonius، ترجمة، ج.س. رولف (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٩٧)
توماس، كيث، Man and the Natural World (نيويورك، ١٩٨٣)
تومبسون، جو أركي وينتورث.، Glossary of Greek Birds، (لندن، ١٩٣٦)
تيبولوس، Catullus/Tibullus/Pervigilium Veneris، تحقيق ج.ب جوولد، ترجمة ج.ب. بوستغايت (كامبردج، ماساشوستس، ١٩٦٢)، الصفحات: ١٩٢-٣٣٩.
تود، باربرا ايوفان، Worzel Gummidge، or The Scarecrow of Scatterbrook (نيويورك، ١٩٤١)
توبيروف، شلومو بيساش، The Animal Kingdom in Jewish Thought (نورثفيل، نيوجرسي، ١٩٩٥)
توبسيل، ادوارد، The Fowles of Heaven، or History of Birdes، تحقيق توماس ب. هاريسون وف.دايفيد هونغير (أوستن، تكساس، ١٩٧٢)
تورغا، ميغيل، Vincente the Raven»، Farrusco the Blackbird and Other» Stories from the Portuguese، ترجمة دينيس براس (لندن، ١٩٥٠)، الصفحات: ٨-٨٣
تيموكزكو، ماريا، Two Death Tales from the Ulster Cycle: The Death of Cu Roi and The Death of Cu Chulainn (دبلن، ١٩٨١)
فان لان، نانسي، Rainbrow Crow:. Lenape Tale (نيويورك، ١٩٩١)
فيرجل، The Singing Farmer:. Translation of Virgil»s «Georgics»، ترجمة ل.أ.س. جيرمان (اوكسفورد، ١٩٤٧)
فوراغين، جاكوبز دو، The Golden Legend: Readings on the Saints، مجلدان، ترجمة ويليام جرانجر رايان (برينستون، نيوجرسي، ١٩٩٥)
واديل، هيلين، Beasts and Saints (جراند رابيدز، ميتشغان، ١٩٩٦)
ويب، ماري، Precious Bane (نيويورك، ١٩٦٠)

وايت جيلبرت، The Natural History of Selborne (نيويرك، ١٨٩٠)
ويلسون، الكسندر، وتشارلز لوشيان بونابرت، American Ornithology, or The Natural History of Birds in the United States، أربع مجلدات، تحقيق روبرت جايمسون (ادنبرة، ١٨٣١)
ياتس، دبليو.ب. The Poems of W. B. Yeats (نيويورك، ١٩٨٣)

مواقع الإنترنت

كيفين ج. ماكجوان، عالم طيور في جامعة كورنيل، متخصص في الغربان. ستحصل الاستفسارات التي تخص التنبؤات بسلوك الغرابيات على أجوبة كريمة ومطلعة: http://birds.cornell.edu/crows

For the Love of Crows

من أجل حب الغربان، موقع يحتوي على ملخص موجز للمعلومات الأساسية حول الغربان، مع العديد من الصور ويرتبط أيضاً بالعديد من مواقع الإنترنت حول الغرابيات http://www.zeebyrd.com/corvi29

Crows

الغربان، وهو موقع مخصص للبحث في ثقافة وتواصل الغراب الأمركي: http://www.crows.net

Save the Crows

أنقذوا الغربان، موقع لنشاطات الأشخاص المهتمين بشكل خاص بالقتل الأحمق الذي تمت ممارسته أحياناً على الغراب الأمريكي:

http://www.savethecrows.org

Corroborroboree Corvidae، وهو موقع مكرس للتاريخ الطبيعي للغربان وهو يحمل اسم مهرجان للأستراليين الأصليين: http://www.personal.umich.edu/~csparr/corvidweb/corroboree.htm

Avian Companions

الطيور الرفاق، وهو موقع شامل حيث من الممكن البحث عن المعلومات عن الطيور الغريبة نسبياً بما فيها الغرابيات: http://www.aviancompanions.com/links/crows.html

Crows and Ravens

الغربان والغربان السوداء، موقع شخصي يديره محب للغربان والغربان السوداء يختص بكيفية ظهورها في الأساطير والخرافات.

http://www.angelfire.com/doc/general/insite.html?search_string=ravens+birds&memberurl=http://www.angelfire.com/sys/popup_source.shtml?search_string=ravens+birds

شكر وتقدير

أشكر زوجتي ليندا ساكس على العديد من الاقتراحات التي قدمتها ولتشجيعها لي خلال كتابة هذا الكتاب. وجزيل الشكر أيضاً لماريون دبليو. كوبلاند التي ساعدتني بمعرفتها الواسعة بالحيوانات في الأدب الحديث. كما أثار روب ريسير انتباهي لقصة غراب قوس قزح وقصص أخرى مهمة. وأنا ممتن أيضاً لجوناثان بورت، الباحث وكاتب عمود (الحيوان) والذي كان أول من اقترح عليّ كتابة هذا الكتاب.

وبما أنني بدأت الكتابة حول الغربان فقد أصبحت واعياً أكثر لوجودها في روتين حياتي اليومي، وقد قدمت لي الأفكار والتوجيه والتسلية، وإذا شعر القارئ بشيء مشابه، فسيكون هذا الكتاب قد حقق هدفه الأساسي.

الجمعيات

أسكار (الجمعية الأمريكية للغربان والغربان السوداء)

ASCAR (American society for cows and ravens)

www.ascaronline.org

تقوم هذه المنظمة بتتبع التطورات الثقافية والاجتماعية والعلمية التي تؤثر على الغربان والغربان السوداء وأقاربها، وتصدر نشرة إخبارية غير دورية تحت اسم Corvi Chronicle.

لمزيد من المعلومات: اسكار، ص.ب: ١٤٢٣، لورانس، كنساس ٣٢٤٨-٦٦٠٤٤ الولايات المتحدة الأمريكية.

ASCAR, P.O Box 1423, Lawrence, Kansas 66044-8423, USA

نيلاس (الطبية في الأساطير والقصص)

NILAS (nature in legend and story)

www.h-net.org/~ nilas

تدرس هذه المنظمة تصوير الحيوانات والنباتات في الأساطير والأدب والثقافة والفنون والجوانب الأخرى من الثقافة البشرية. وهي تتضمن (مجموعة طوطمية) تكرّس نفسها للغرابيات.

لمزيد من المعلومات الرجاء الاتصال بالسيد ديفيد س.أندرسون، أمين السر، نيلاس، ٣٤٠ كيلدبير كورت، لنكولن، كاليفورنيا ٢٤٧٤-٩٥٦٤٨، الولايات المتحدة الأمريكية.

David C. Anderson, Treasurer, NILAS, 340 Killdeer Court, Lincoln, California 95648-2474, USA

حلقة الغربان والغربان السوداء الأليفة

www.angelfire.com/nj2/corax/ring.html

منظمة غير رسمية تشمل الأفراد الذين يحتفظون بغربان أليفة أو هم مهتمون بها، ويتبادل المشاركون فيها المعلومات والحكايات.



«تعدنا هذه السلسلة الجديدة بإدمان جديد...»
ديزموند موريس
«كتاب رائع وممتع حقاً...خيارك المثالي للقراءة»
الميثاق البريطاني لأخبار علم الطيور
«سلسلة جريئة ومذهلة»
الإنديبيندنت

لا يسعك إلا أن تلحظ الرشاقة التي يتمتع بها الغراب! فتقوس واحد ينزلق من رأس منقاره وحتى نهاية ذيله، ويتحرك بتناغم حينما يحرك الغراب رأسه أو ينحني باتجاه الأرض. باستطاعة هذه المخلوقات الرائعة أن تطير دون أن تبذل جهوداً تذكر. وترتفع في السماء بكل انسيابية محلقة في مختلف أنحاء الأرض.

في العديد من الحضارات التي تمتد من الصين وحتى هنود الهوبي اعتبرت الغربان حاملة للنبوءات. واستخدمها الإغريق في حفلات الزفاف كرموز للحب المشترك بسبب رقصات التودد التي تمارسها وعلاقاتها التي تعتمد فيها على زوجة واحدة.

يتطرق هذا الكتاب إلى الغربان والغربان السوداء وغربان العقعق، وذلك في كل من الأساطير والأدب والحياة. حيث يبدأ من الغراب الذي أرسله نوح إلى الغراب الآلهة لدى الاسكيمو، وصولاً إلى الأساطير والروايات الفيكتورية والأفلام المعاصرة. فإن كنت ممن شعروا بأنهم منزعجون أو مسحورون بهذه الطيور الفائقة الذكاء، فمن شأن هذا الكتاب أن يثير اهتمامك بلا ريب!

بوريا ساكس محاضر في الأدب في كلية ميرسي في دوبوس فيري بنيويورك، ومؤسس (NILAS)منظمة الطبيعة في الأساطير والقصص

يتضمن هذا الكتاب ٩٥ رسماً توضيحياً، منها ٢٧ رسماً ملوناً.







